العوامل الطارئة على اللغة
دراسة لقضايا اللحن والتصحيف والتوليد والتعريب ...
في ضوء علم اللغة الحديث

الدكتور محمد عيد
كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

- 2 -

شغل « التصحيف والتحريف » أذهان علماء اللغة ، ذلك أن الخطأ الذي ترتب عليه – وان كان يعود أصلا للرسم الكتابي – قد انعكس على النطق اللغوي بقراءة الكتابة ورواية القراءة .

وقد اهتم العلماء به لذلك ، اذ راوا فيه خطرا يهدد اللغة ، وعيبا يؤاخذ عليه فاعله بل عارا يلحق من يصدر منه .

ومن الطريف أن نعلم أن ظاهرة التصحيف والتحريف لم يقتصر امرها على العوام من القراء أو النساخ والوراقين ، بل تفشت بكثرة بين العلماء انفسهم ، كما يقول حمزة الأصبهاني ، قد فضح التصحيف في دولة الاسلام خلقا من القضاة والعلماء والكتاب والامراء وذوي الهيئات من القراء .

ولقد وجدت ظاهرة التصحيف والتحريف في وقت مبكر ، وحملت اللغة مظاهر الخطأ التي ترتبت عليها في الفترة نفسها التي هددها فيه مظاهر الخطأ « باللحن » – حوالي منتصف القرن الاول الهجري – وكما وجه العلماء جهودهم لمقاومة اللحن بدراسة اللغة ووضع قواعد النحو فقد بذلوا جهودا اخرى لمقاومة التصحيف والتحريف بوضع قواعد من نوع آخر لضبط الكتابة وتوقي الالتباس فيها .

وعلى الرغم من أن كلا النوعين من القواعد لم يقدم الحل الحاسم الناجع لخطأ القول وقراءة الكتابة ، فان قواعد النحو ظلت لديهم عالية سامية ، واطرد اهتمامهم بها مع اطراد نموها ، اما في الجانب الآخر فقد أعلنوا يأسهم من وسائل الضبط في الكتابة وبحثوا عن وسيلة أخرى لتوقي خطأ القراءة ، فلم يجدوا غير الزام الناس « بوجوب المشافهة في رواية اللغة » وهو حل شاق ، وغير عملي ، علاوة على أنه حاد عن موضوعه ، اذ كان من المتوقع ان يواصل العلماء جهودهم في « اصلاح الرسم العربي وضبطه » لكنهم – فيما يبدو – حين يئسوا من ذلك ، تركوا قضيته معلقة ، والتمسوا وسيلة أخرى هي « وجوب المشافهة » وهي وسيلة فضفاضة غير عملية وغير مقنعة .

ولم تقتصر جهود علماء اللغة في مقاومة التصحيف والتحريف على محاولة ضبط الكتابة والتواصي بالمشافهة في الرواية ، بل راحوا – منذ القرن الرابع الهجري وما تلاه – يبذلون جهدا آخر يتفق مع المرحلة العلمية كلها في تلك الفترة ، وذلك بالالتفات الى الوراء لجمع امثلة التصحيف والتحريف في مؤلفات تضمها ، تماما كما راجعوا جهود السابقين في النحو للتأليف في « اصول النحو » وكما راجعوا مادة اللغة في النحو للتأليف في « الشواهد » ثم في « الاستشهاد » .

فجهود علماء اللغة في مقاومة « التصحيف والتحريف » قد تدرجت في الآتي :

1– ضبط الكتابة العربية بالنقط والشكل .
2 – ضرورة المشافهة في رواية اللغة .
3 – تنقية الأخطاء بجمعها في مؤلفات .

وهذه الامور الثلاثة فى حاجة الى فضل ايضاح وتأييد للوقوف على جهودهم فيها ، ثم استخلاص أساس التصويب والتخطئة الذي وجه نظرتهم ومقاومتهم لهذا النوع من الانحراف فى اللغة .

هناك رواية مشهورة عن مقاومة ظاهرة التصحيف والتحريف فى الكتابة تتناقلها مصادر التصحيف والقراءات ، ومؤدى هذه الرواية ان العلماء تنبهوا لخطورة التصحيف والتحريف حين حدث فى قراءة القرآن ، فكان من ذلك الدافع الاصلي الذي دفعهم للبحث عن وسائل ضبط الكتابة ، فهذا الدافع الديني هو الذي أثار هم العلماء لتوقي التصحيف والتحريف فى القرآن واتخاذ الوسائل الواقية من حدوث ذلك فيه .

غير أن هذه الشهرة ينبغي أن تقتصر على موضوعها وزمانها ـ وموضوعها هو مصاحف عثمان المكتوبة والخطأ فى قراءتها ، وزمانها هو منتصف القرن الاول تقريبا ـ فلا يفهم من ذلك أن التصحيف والتحريف لم يحدث فى غيره من النصوص المكتوبة من قبل هذا العصر ومن بعده ، اذ من الثابت أن الكتابة كانت معروفة فى عصر الرسول وقبل عصره والمعتقد انه قد دونت بالكتابة غير المضبوطة أمور كثيرة كان منها نصوص اللغة من شعر ونثر ، والمعتقد كذلك أن ظاهرة التصحيف والتحريف حدثت فى قراءة هذه المدونات قبل حدوثها فى قراءة المصاحف وإن كان غموض التاريخ العربي قبل الاسلام وفى غير القرآن لا يسعفنا بأدلة مؤكدة لاثبات هذا الاعتقاد .

وهذا هو نص الرواية المشهورة عن المصاحف كما أورده حمزة الاصبهاني :

* كتب عثمان المصاحف الخمسة ، وفرضها على الامصار . فصار الناس يقرؤون فيها نيفا واربعين سنة وذلك من زمن عثمان الى أيام عبد الملك ، فكثر التصحيف على ألسنة الناس ففزع الحجاج ، وسأل كتابه تدارك الامر ، فوضعوا النقط افرادا وازواجا ، وخالفوا بين اماكنها ، بعضها فوق الحروف ، وبعضها تحت الحروف ومع ذلك كان يقع التصحيف ، فاحدثوا الاعجام ، فاذا اغفلوا الاستقصاء على الكلمة ، فلم توف الحقوق كلها من النقط والاعجام ، اعتراها التصحيف ، فالتمسوا حيلة ثالثة ، فلم يقدروا عليها .

فقد بان لمن عقل ، وانصف من نفسه أن اعتراض التصحيف فى هذه الكتابة مع ما جلب اليها من الزيادة فى البيان بالنقط والاعجام ليس الا من ضعف الأساس (1) .

وينبغي ملاحظة أن « النقط » المذكور هنا قصد به « شكل الحروف » من فتح وكسر وضم وسكون وتنوين ، اذ كان ـ كما تقول الرواية ـ يوضع نقطتا افرادا وازواجا بعضها فوق الحروف ، وبعضها تحت الحروف ، وهو ما غير فيما بعد ـ على يد الخليل ـ الى الشكل المرسوم على هيئة ابعاض الحروف (ـ ، و ، ه) كما يلاحظ أن المقصود « بالاعجام » هنا هو النقط التي تفرق بين الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء أو الجيم والحاء والخاء ، ولان كلا من النوعين كان يرسم نقطا ، فان التمييز بينهما اعتمد على لون المداد المستعمل فى الكتابة .

ذلك جهد كبير بذله العلماء فى ضبط الكتابة ، لكنه ـ كما تشير الرواية ـ كان جهدا شاقا لم يستطع التزامه فى كل ما كتب ، ولم يمنع تماما حدوث التصحيف واستمراره « فاذا اغفل الاستقصاء على الكلمة ، فلم توف حقوقها ، اعتراها التصحيف » وانى يكون هذا الاستقصاء دوما اذا كان الكاتب ملزما فى الكلمة الواحدة مثلا أن يكتب حروفها أولا ، ثم يأتي بمداد مخالف ليوفي شكلها بالنقط ثانيا ، ثم يعود للمداد الاول ليعجمها ثالثا ، ان هذا ـ فى الحق ـ عمل مجهد للغاية ، وقد أحس العلماء انفسهم بمشقته ـ كما تقول الرواية ـ فالتمسوا حيلة ثالثة فلم يقدروا عليها ، وبقي التصحيف مع هذا الجهد ظاهرة خطرة فى قراءة الكتابة ، وهذا ـ كما عبر الاصفهاني ـ ليس الا من ضعف الاساس .

أجل .. ضعف الأساس فى الكتابة !! هذه هي المشكلة ، ولو واجه العلماء هذا الاساس الضعيف بوضع أساس بديل له ، أو تقوية ضعفه بطريقة محكمة، لحلت مشكلة الخط بصورة نهائية ، ولما بقي التصحيف والتحريف خطرا يهدد نطق اللغة ، ويؤرق علماءها .

كان من الضروري اذن وقد ترك علماء اللغة هذا الاساس الضعيف على ما هو عليه من ضعف ، ان يقاوموا خطأ النطق بطريقة اخرى ذكرها ابو احمد العسكرى نصا ـ بعد ان ساق الرواية السابقة تماما مع اختلاف

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 37 ـ 38 .

طفيف في عرضها ـ قال : « فالتمسوا حيلة فلم يقدروا الا على الاخذ من افواه الرجال » (2) .

والاخذ من افواه الرجال لم ينقطع ابدا في عصر الاحتجاج باللغة وروايتها ، ولا يتصور انقطاعه في اي عصر من العصور ، لكن الذاكرة لا تقوى على حفظ النصوص اذا طالت ، وهي من ناحية اخرى لا تستطيع المحافظة على ما حفظته زمنا طويلا ، لذلك كان الناس في حاجة الى وسيلة اخرى لحفظ النصوص والمحافظة عليها ، وكان غريبا ان يترك العلماء قضية « الرسم العربي » دون حل حاسم ، لابدال ذلك بالزام الناس الاخذ من افواه الرجال مع التأكد من ان هذه طريقة غير عملية .

وقد ترتب على ذلك شيوع مجموعة من الافكار تدور حول الرواية والكتابة لا يصعب تفسيرها في ضوء ما تقدم .

من هذه الافكار مثلا الحرص الشديد على التظاهر بالرواية الشفهية وكثرة الحفظ ، وما يروى عن ذلك من غرائب الحفاظ في ضخامة ما وعته ذاكرتهم من اخبار واشعار ونوادر ، فالاصمعي ـ كما قيل ـ حفظ اثني عشر الف ارجوزة ، منها ابليت والبيتان ومنها المائة والمائتان ـ يلاحظ ان ذلك في الرجز وحده ـ واسماعيل بن سيار املى معجما كاملا من ذاكرته وهو معجم « العين » الذي حفظه ، ثم ضاع منه ، فاملاه من حفظه ، وغلام ثعلب كان يحفظ اكثر من ثلاثين الف شاهد على النحو ، الى غير ذلك من الاعاجيب .

ومن هذه المظاهر الحرص على اختيار من ياخذون عنه اللغة ، للتأكد من انه لا يعرف الكتابة والاخذ من الصحف ، فاذا اثبت الاختبار اقتراف الاعرابي لهذا الامر المنكر ، بهرجوه وزيفوه ورفضوا الاخذ عنه .

ومن ذلك العبارة اللغوية الذائعة الصيت حتى اليوم (لا تاخذوا القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي) والمصحفي : هو الذي ياخذ قراءته عن المصحف ، والصحفي : هو الذي يقرأ الصحف ، فتحدث في روايته الاخطاء باشتباه الحروف وتغيير الحركات .

وقد ترتب على ذلك حملة شديدة الوطأة على المصحفيين والصحفيين جميعا وغدت نسبة ذلك الى احد العلماء شيئا يثير الحفيظة ويستوجب الانكار والاستبراء لما يلحقه بسببه من نقص وعار .

* قال ابو احمد العسكري : قد فضح بالتصحيف خلق من اهل الادب ومن الاشراف والقضاة والرؤساء وهجوا به ، وبقي ذمهم مخلدا في بطون الكتب ، وقد مدح بالاحتراز من التصحيف والتحفظ منه جماعة ، منهم خلف الاحمر ، فان الحسن بن هانيء رثاه وهو حي ، فكان من افضل ما عدد من مناقبه ان قال :

لا يهم الحاء في القراءة بالخاء ولا ياخذ اسناده عن الصحف (3) واغلب الظن ان « ابا نواس » قصد بذلك المداعبة لا الجد ، ولا يفهم غير ذلك من شعر يقوله ابو نواس في « رثاء انسان وهو حي » وجو المداعبة هذا دفعه الى ارضائه بقوله له : انه لا يصحف ولا ياخذ عن الصحف ، ولعل ابا نواس اعلم من غيره بانه غير صادق في هذه القضية خصوصا مع خلف الاحمر مع ما هو مشهور عنه ومتهم به .

وعلى كل حال فقد قاوم العلماء التصحيف والتحريف باشاعة الحث على المشافهة في الرواية والتنفير من الاعتماد على الصحف ، وذم المصحفين ، وقد افادت رواية اللغة من ذلك دون شك وان كان ذلك كله ـ في واقع الامر ـ تظاهرا لا يتفق مع الواقع حتى من القائلين به انفسهم . فمعظم العلماء كانوا يكتبون ويقرؤون في الصحف ، والا فماذا كان يصنع ابو عمرو ابن العلاء بكتبه التي ملأت ـ فيما يقال ـ حجرة الى السقف واشعل فيها النار في سورة غضب ، ومن الذي تولى انفاد خمس عشرة قنينة حبر اريق مدادها على الصحف والكسائي في البادية يكتب عن الاعراب !!

ان قصارى ما يفهم من الدعوة الى المشافهة وذم الاخذ عن الصحف هو دلالتها لا حقيقة ما تنطق به ، وهي تدل على شدة الحرص على ضبط اللغة والاخذ من العلماء وقد اعتبر هذا في الوقت نفسه بديلا لم يجدوا عندهم غيره لضبط النطق بعد ان شق عليهم ضبط الكتابة او تغيير اساسها الضعيف .

وينبغي بعد ذلك الامر الثالث والاخير في معركة

---

(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 13 .
(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 18 .

العلماء مع « التصحيف والتحريف » وهو « تنقيـــة الاخطاء بجمعها فى مؤلفات » يوضحها الجدول الآتـــي مما دخل فى امكاني الحصول عليه منها ومعرفتهـــا . وهي مرتبة بحسب وفاة مؤلفيها .

اســـم الكتـــــاب	المؤلـــف وتاريـــخ الوفـــاة	لاشارة الى ما هو موجود منهـــا
1 ـ ما صحف فيـــه الكوفيـــون	محمـــد بن يحيـــى الصولـــي (ت 335)	ـــــــ
2 ـ التنبيه على حدوث التصحيف	حمزة بن الحســـن الأصبهانـــي (ت 360)	مخطـــــوط
3 ـ التنبيهات على اغاليط الرواة	علـــي بن حمـــزة البصـــري (ت 375)	مخطـــــوط
4 ـ شرح ما يقع فيه التصحيـــف والتحـــريـــف	أبو احمد الحســـن بن عبد الله العسكـــري (ت 382)	مطبـــــوع
5 ـ تصحيـــــف المحدثيـــــن	أبو احمد الحســـن بن عبد الله العسكـــري	مخطـــــوط
6 ـ تصحيـــــف المحدثيـــــن	أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (ت 385)	ـــــــ
7 ـ التصحيـــف والتحـــريـــف	أبو الفتح عثمان بن عيسى البلطي (ت 600)	ـــــــ
8 ـ تصحيح التصحيف وتحريـــر التحـــريـــف	خليـــل بن ايبـــك الصفـــدي (ت 764)	مخطـــــوط
9 ـ التعريب فى فن التصحيـــف	محمـــد بن علـــي الصالحـــي (ت 953)	مصـــــور

والذي الاحظه على هذا الجانـــب من مقاومـــة «التصحيف والتحريف » ما يلي :

اولا : ان هذا جانب دراسي بدأ ـ فيما اعلم ـ فى القرن الرابع الهجري كما هو مبين فى الجدول وقـــد اعتمد على مراجعة جهود السابقين المتفرقة ورواياتهم المتناثرة لجمعها فى مؤلفات عن ظاهرة « التصحيـــف والتحريف » وهي ـ بهذه الصفة ـ تعتبر تسجيلا مهما لجانب من العوامل الطارئة على اللغة ، وبناء على ذلك فان فائدتها فى مقاومة التصحيف والتحريف تفيـــد دارس اللغة والادب تاريخيا لتحقيـــق النصـــوص ، والوقوف على مظاهر الصواب والخطأ فيها .

ثانيـــا : يضاف الى ذلك ان هذه المؤلفات لـــم تقتصر على الاحاطة الغنية بنماذج التصحيف والتحريف وايراد الامثلة الكثيرة ، وتعداد من وقع منهم ذلك من الشعراء وعلماء اللغة والمحدثين والقراء ، بل احتـــوت أيضا على تناول قضية التصحيف والتحريف من حيث نشأتها وعواملها ، ونظرة العلماء لها ، مما افدت منـــه فى افكار هذا الموضوع .

ثالثـــا : يلاحظ ان مؤلفات التصحيف والتحريف قليلة نسبيا بالنظرة الى الجهود التي بذلت فى غيرهـــا من مظاهر الانحراف فى اللغة ـ كاللحن مثلا ـ ولذلك ـ فيما افهم ـ دلالته اذ الفت لرصد الخطأ الذي يعود اساسا الى قراءة اللغة المكتوبة ، وهو جانب لا يصل فى اهميته الى حد الخطأ الذي يحدث فى نطـــق اللغـــة ملحونـــــة .

اخيـــــرا :

فان ظاهرة التصحيف والتحريف خطأ ظهـــر فى رواية اللغة نطقا نتيجة اللبس فى قراءة الخط وقد بذل علماء اللغة جهودا طيبة لاصلاح هذا الخطأ فى منشئه ومظهره ، والمستوى الصوابي الذي نستخلصـــه من نظرتهم الى هذا الخطأ وجهودهم فى مقاومته يلخصـــه عبارة واحدة هي : (**اصلاح ما سماه الأصبهاني ضعف الاساس فى الكتابة ثم التحـــول عن ذلك الى وجـــوب المشافهة فى الرواية**) .

ذلك هو الاساس باختصار ، فهل كان حلا حاسما لمشكلة التصحيف والتحريف ؟ !

بيان ذلك موعده القسم الاخير من هذا البحـــث ان شاء الله .

— ◆ —

« التـــوليـــــــد »

معنى التوليد في الألفاظ ومصادره اللغوية

التوليد في الالفاظ احد المباحث المهمة في علم المعنى ، فهناك مكانه الاصلي في دراسة اللغة بمستويات متعددة منها مستوى الدلالة ، والتوليد يتعلق بالمعاني وتطورها واحتياجها الى الفاظ جديدة ، لكن النظر هنا الى قضية « التوليد » تأتي اهميته من زاوية اخـــرى تتعلق بالألفاظ لا المعنى ، فان هذه الالفاظ المولـــدة ذات مظاهر فيما يتعلق ببنية الكلمـــات من حيـــث الاشتقاق او التعريب ، واستخدام صيـــغ صرفيـــة خاصة ، ومن هذه الزاوية راى علماء اللغة في التوليد ظاهرة طارئة على اللغة ، وخضعت ـ بهذه الصفـــة ـ لموقف معين منهم يدخل هذا البحـــث عن الصـــواب والخطـــــأ .

وينبغي في هذه الفقرة بيان الامور الثلاثة الآتية :

1 ـ عرض تاريخي مختصر للمولد ، من حيث استعمال اللفظ ، ودراسة العلماء لمظاهره .

2 ـ التحديد النظري لمعنى التوليد كما رآه الاقدمون

3 ـ مصادر التوليد في الالفاظ ، وتقديم نماذج لها .

اولا : لفظة « مولد » ودراسة العلماء لنماذجه .

جاء في اساس البلاغة : غلام مولد وجارية مولدة، ولدت عند العرب ، ونشأت مع اولادهـــم ، وتأدبـــت بآدابهم ، ومن المجاز : ولدوا حديثا وكلاما ، استحدثوه، وكلام مولد ، ليس من اصل لغتهم .

ويدل النص السابق على أن المولد قد يطلق على الاشخاص وعلى الكلام ، ونسبته الى الاشخاص تعتمد على النسب والعنصر ، فمن كان نسبه عربيا خالصـــا فهو عربي خالص ومن داخل نسبه عنصر أجنبي عـــن العرب فهو المولد ، ثم اصبح هذا اللفظ يطلق مجـــازا ـ كما قال الزمخشري ـ على الكلام المحدث الذي ليس من اصل لغتهم .

ومن الواضح ان اللفظ اطلق اولا على الاشخاص الذين وجدوا بين العرب الخلص ثم اتسع استعمالـــه فأطلق على الكلام المحدث الذي ليس من اصل لغـــة العرب ، وانما هو كلام جديد شاع في المجتمع العربـــي مع ازدياد مخالطة الاجانب ، فكثر العنصر المولد ، وقل العنصر العربي الخالص النسب .

ذلك أن الاجانب وجدوا بين العرب في الجاهلية ثم ازداد اختلاط العرب والاجانب في الاسلام بفعـــل الدين الجديد والحروب والتجارة ، وفي القـــرن الاول شكل الاحساس بالخطر من هؤلاء الاجانب على العنصر العربي ولغته مشكلة اشترك في مقاومتها رجال الدولة الاموية وعلماء اللغة ، أما في القرن الثاني فقد تطورت العلاقة بين العرب والاجانب وكون الأخيرون عنصـــرا غالبا سيطر على الدولة ، واصبحوا اشد تأثيـــرا في اللغة مما ترتب عليه منع الاستشهاد بلغة الحضر بصورة نهائية . لكثرة المولدين بين العرب وشيـــوع الكـــلام المولد من حديث الناس عامة وخاصة .

ومن الصعب على الدارس ان يحدد بدقة متى بدأ استعمال لفظة « المولد » وكيف تطور هذا الاستعمال كما اشار اليه الزمخشري ، لقصور دراستنا في الحقل اللغوي التاريخي عن اداء هذه المهمة حتى اليوم ، وغاية ما يستطيعه الدارس لذلك ان يلتقط بعض النصوص المتناثرة التي تفيد في تقريب ذلك .

واول نص علمي قديم ـ فيما اعلم ـ عن المولدين من الكلام ما رواه ابن رشيق منسوبا الى ابي عمرو بن العـــلاء وهو :

* قال ابو عمرو : لقد احسن هذا المولد ، حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته ـ يعني بذلك شعـــر جرير والفرزدق ـ فجعله مولدا بالاضافة الى شعـــر الجاهليين والمخضرمين ، وسئل عن المولديـــن فقال : ما كان من حسن ، فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح، فهو من عندهم ، ليس النمط واحدا ، ترى قطعة ديباج، وقطعة مسح ، وقطعة نطع (4) .

فهذا اللفظ ـ ان لم يجانبني التوفيـــق ـ قـــد استعمل في نهاية القرن الاول او بداية القرن الثانـــي مرادا به من اختلطت انسابهم او ما قيـــل من الكـــلام العربي في المجتمع العربي الذي كثر فيه هؤلاء المهجنون، ثم اطرد استعمال هذه اللفظة في القرن الثاني مع وجود لفظة اخرى الى جوارها هي لفظة « محدث » مـــرادا بها ايضا الناس او الكلام ، وهو معنى اللفظة الاولى .

اما قبل ذلك فلم يكن استعمال اللفظ « مولد » شائعا بين الناس ولا العلماء والـــذي يصادفنـــا في

(4) انظـــر : العمـــدة ج 1 ص 56 .

الروايات العلمية عن القرن الاول الهجري الفاظ اخرى قريبة الصلة بلفظة « المولد » مثل الاعجمي والمولـــي والاجنبي ، وهذه مناسبة للفترة التي شاعت فيها ، اذ لم يكن الاجانب قد تم اندماجهم بالعرب بالصورة التي حدثت فى نهاية القرن الاول وبداية الثاني ، مما انتـــج المولدين من الاشخاص والكلام .

وتتردد الكلمة بعد ذلك بكثرة بين علماء القـــرن الثاني والثالث ومن بعدهم ، ولنتأمل النص التالي عن الاصمعـــي :

* روى أبو حاتم : قال الأصمعي : وعمر بن أبـي ربيعة مولد وهو حجة،سمعت أبا عمرو ابن العلاء يحتج فى النحو بشعره ، ويقول : هو حجة ـ وفضلةبن شريك الأسدي وابن الرقيات هؤلاء مولدون، وشعرهم حجة ـ ورايته طعن فى الأقيشر ، ولم يلتفت الى شعره ، وقال: لا يقال الا (رجل شرطي) قلت : قال الاقيشر :

انما يشرب من اموالنـــــا
فاسألوا الشرطى ما هذا الغضب

قال: ذلك مولد (5) .

فالأصمعي يردد هذا اللفظ ثلاث مرات فى هـذا النص القصير عن هؤلاء الشعراء الذين عاش اكثرهم فى العصر الأموي ، فوصفهم بأنهم مولدون ، وكلامهم مولد.

هذا ... والحديث عن الاستشهاد بكلام المولدين يدخل ضمن الحديث عن الاستشهاد بكلام الموالي عامة ـ وليس هذا موضعه ـ اما الذي نحن بصدده فانـــه يتعلق بظاهرة خاصة من كلام المولدين وهي الالفـــاظ التي ترد فى معاجم اللغة وكتب اللحن والتعريب ، ثم يحكم عليها بأنها « مولد » ولا يقتصر على ذلك فقط ، بل يتردد معه احيانا القول بأنه ليس من كلام العرب وانه خطأ ـ كما فى النموذجين التاليين :

* الكشخنة : مولدة ، وليست بصحيحة

* النحرير : ضد البليد ، وكان الأصمعي يقول : النحرير ليس من كلام العرب ، وانما هي كلمة مولدة(6)

فهذا النوع من الالفاظ التي يحكم عليها بانهـــا « مولدة » مع الحكم عليها احيانا بما يخرجها عن كـلام العرب ، وعن الصواب كلية هي موضع النظر هنا .

هذا ومن المفيد أن يعلم هنا ان المولد من الالفاظ لم ينفرد فى الغالب الأعم بكتب دراسية خاصة به ـ عدا ما ذكر عن « كراع النمل المصري » انه الف كتابا فى المولد وهو مفقود ـ بل ذكرت امثلته متناثرة بقلة فى معاجم اللغة ، وبكثرة نسبية فى كتب لحن العوام وكتب المعرب والدخيل . ولعل ذلك يرجع الى ان استقصاء الفاظ التوليد مع تعدد مصادرها المتسعة ـ كما سيأتي ـ لا تحد ولا يحيط بها العد ، ولذلك اقتصر على ذكـــر المهم منها عرضا فى الكتب التي تناولت بعض الظواهر اللغوية الخاصة الطارئة على اللغة كظاهـــرة اللحـــن والتعريـــب .

ثـانيـــا : التحديد النظري لمعنى التوليد فى آراء الاقدمين .

* قال السيوطي : هو ما احدثه المولدون الذين لا يحتج بكلامهم ، والفرق بينـــه وبين المصنـــوع أن المصنوع يورده صاحبه على انه عربي فصيح ، وهـــذا بخلافه ـ وفى مختصر العين للزبيدي : المولـــد من الكلام المحدث ـ وفى ديوان للفارابي : يقال هذه عربية وهذه مولدة ـ قال فى الجمهرة : الحسبان الـــذي ترمي به هذه السهام الصغار مولد ، وقـــال : كـــان الأصمعي يقول : النحرير ليس من كلام العرب ، وهي كلمة مولدة ، وقال : الخم ، القوصرة يجعل فيها التبن ، لتبيض فيها الدجاجة ، وهي مولدة (7) .

* اورد المحبى عن ثعلب انه سئل عن التغييـــر فقال : هو كل شيءمولد(8)، ثم قال : وهذا يقتضي ان كل لفظ كان عربي الاصل ، ثم غيرته العامة بهمـــز أو تركه أو تسكين أو تحريك ونحو ذلك مولد (9) .

* وفى الطراز المذهب : هو ما احدثه المولدون ، وقيل : كل لفظ عربي غيرته العامة (10) .

---

(5) فحولـــة الشعـــراء ، ص : 32 .
(6) انظر : المعرب من الكلام الاعجمي ، ص : 281 ـ 331 .
(7) المزهـــــر ج 1 ، ص : 304 .
(8) مجالس ثعلب ، ص : 802 .
(9) قصد السبيل فيما فى اللغة العربية من الدخيل ص : 17 .
(10) الطراز المذهب فيما فى اللغة من المعرب ص 8.

* وفى الاشتقاق والتعريب : ما لم يعرفه أهل اللغة ولم ينطقوا به من الكلام ، وانما استعمله المولدون، وجروا عليه فى منثورهم ومنظومهم (11) .

ويلاحظ على هذه التعريفات النظرية السابقة ما يلي :

1) ان بداية الحديث عن ذلك نظريا كان من علماء القرنين الثالث والرابع ، اذ حدثت المراجعة لكل ما تقدم من آراء متناثرة فى دراسة اللغة ، كما هو واضح فيمن ورد ذكره فى النصوص ثعلب والزبيدي والفارابي اللغوي .

2) ان علماءنا الاقدمين ـ فيما يبدو ـ لم يتفقوا على اتجاه واحد فى تحديد معنى المولد فهو عند بعضهم : المحدث ، وعند الآخر : التغيير ، وعند ثالث شيء عام . اذ يقال هذه عربية ، وهذه مولدة ، وعند رابع : كل لفظ عربي غيرته العامة .

3) ان الالفاظ التي استعملت فى تعريف المولد الفاظ فضفاضة عامة الدلالة وهي بذلك معرضة للاخذ والرد فيما يتعلق بالتحديد الحاسم للمولد من الالفاظ وغير المولد منها .

4) والذي يفهم من هذه الآراء كلها انها تدور حول امرين : اولهما : ان المولد هو التغيير عامة سواء فى ذلك ما يشمل الالفاظ المحدثة مما لم يستعمله العرب ـ فى رايهم ـ اصلا او الالفاظ والتراكيب التي استعملها العرب ، ثم غيرت باستعمال المولدين والعوام وهذا واضح فى راى ثعلب (ت 291) الذي سئل عن التغيير فقال : هو كل شيء مولد ، وثانيهما : ان المولد هو المحدث من الالفاظ الذي لم يستعمله العرب فالالفاظ المولدة الفاظ جديدة احدثت بعد عصر الاستشهاد فى الحضر ، وهذا واضح فى راي الزبيدي (ت 380) الذي تابعه فيه السيوطي ، ووضح فكرته له .

وقبل هذين الرايين يلاحظ ان جيل الأصمعي من العلماء لم يكن يعنيه التقعيد النظري للمولد ، بل يحكم على الأمثلة من خلال علمه بكلام العرب . اذ يقول الأصمعي ـ فيما نقله السيوطي ـ النحرير ليس من كلام العرب . وهي كلمة مولدة ، ثم يتوقف .

وبعد هذين الرايين نلاحظ ان اللغويين المقلدين فى العصر الحديث لا يخرجون عنهما ، اذ يورد صاحب الطراز المذهب ـ القرن الثاني عشر ـ كلا الرايين دون تعليق ، كما يورد المغربي فى « الاشتقاق والتعريب » الراى الاخير فقط ، فالمولد فى نظره : ما لم يعرفه أهل اللغة ، ولم ينطقوا به من الكلام، وانما استعمله المولدون وجروا عليه فى منثورهم ومنظومهم .

5) والذي فهمته من تلك الآراء النظرية ومن الامثلة التي صادفتها عن الالفاظ المولدة والتعليق عليها، ان الامر قد تدرج كالآتي :

فى القرن الثاني وجه العلماء ـ كالأصمعي ـ همهم للتعليق على الامثلة المتناثرة لبيان انها مولدة ، وليست من كلام العرب ، كما وجه الاهتمام نفسه لامثلة اخرى توصف باللحن او التعريب .

وفى القرن الثالث ، فهم كل تغيير على انه مولد ، نسبة للمولدين الذين لم يكونوا خالصي النسب وفى تلك الفترة وجه اهتمام لهذا التغيير بصورة عامة ، وخصوا باهتمامهم اللحن فى بنية الكلمات او تاليف الكلام ، فشمل ذلك ايضا التغيير الآخر الذي يأتي من احداث الفاظ جديدة ، وكثرت كتب اللحن فى القرن الثالث ـ راجع جدول ذلك ـ بما تتجه اليه اساسا من الخطأ فى الكلام العربي ، وبما تشمله ايضا من الالفاظ المستحدثة على قلة ويشار اليها بلفظة « مولد » ومثل هذا الراي نظريا ابو العباس أحمد بن يحيى ثعلب .

وفى القرن الرابع خصص العلماء نظريا المولد بانه الالفاظ المحدثة ، وان كان عمليا لم يخرج قبل ذلك عن هذا المفهوم لا فى القرن الثاني ولا فى القرن الثالث ، وان دخل مع غيره تحت مفهوم « التغيير العام» فى القرن الثالث .

ومع كل ذلك ، فان « المولد » من الالفاظ لم يلق عناية خاصة من العلماء توجه للتأليف فيه ، فبقيت امثلته متناثرة بين كتب تناولت ظواهر لغوية متخصصة كاللحن اولا ثم التعريب ثانيا .

ثالثا : مصادر التوليد والتمثيل له

تتلخص مصادر التوليد عن طريق ملاحظة كلماته فى الامور الآتية :

1 ـ الارتجال بالاشتقاق .

---

(11) الاشتقاق والتعريب ص : 62 .

2 ـ التعريب بعد عصر الاحتجاج .

3 ـ التحويل من المعنى اللغوي الى معنى آخر مولد . Semantic Shift

ومن الحق اولا ان يقال : ان الناس العاديين الذين استعملوا المولد ، لم يعرفوا اشتقاقا ولا غيره ، ولم يكونوا يقيسون الامور بمقاييس الصرف وتقنين الكلام، بل انهم يمارسون الكلام دون بحث عما وراء ذلك ، وبملاحظة ظاهرة التوليد فى الالفاظ التي حدثت دون قصد يمكن تصنيفها فى الامور الثلاثة السابقة .

فأما الارتجال بالاشتقاق فمعناه ان يشتق المولدون كلمة من مادة عربية يعرفها أهل اللسان ، لكنهم لم يعرفوا الكلمة المذكورة ، ولم يشتقوها ، فهي اذن كلمة جديدة على الكلام العربي المتوارث .

واذا صح ان تذكر سمات معينة لذلك الذي تم عن طريق الاشتقاق ، فانه يلاحظ فيه الآتي :

أ ـ استخدام النواة الدلالية او حروف الاصول ، فمثلا كلمة (فسقية) مولدة ومادة (ف. س. ق.) موجودة فى اللغة من قبل بمعنى الخروج .

ب ـ مجيء كلمات على الصيغ الصرفية ذات المعاني ، مثل كلمة (حرار) لبائع الحرير ، فهى كلمة ـ كما يقول الخفاجي ـ مولدة ، وقد جاءت على صيغة (فعال) التي تدل على النسبة لكن العرب لم يستعملوها من قبل .

ج ـ استخدام حروف الزيادة ذات المعاني ، فالالف والنون مثلا تدل على المطاوعة ، ومن ذلك الكلمات المولدة (انكسار الضوء وانعكاسه) .

د ـ وسائل تعديل الصيغ فى اللغة العربية ، كالهمزة والتضعيف والتصغير ، ومن ذلك الكلمات المولدة (الابراء والفرغرة والجديري) .

وقد لعب التوليد بالاشتقاق دورا مهما بوسائله السابقة فى اسماء الفرق الدينية وآرائها ، كما يلاحظ من الكلمات الآتية :

الثنوية ـ القدرية ـ الشعوبية ـ الخوارج ـ المعطلة ـ الغلاة ـ المشبهة ـ المرجئة ـ التصوف ـ التشيع ـ الرافضة ـ الزندقة ـ وكذلك لعب دورا مماثلا فى اسماء العلوم ومصطلحاتها.

اما التعريب بعد عصر الاحتجاج فيقصد به ان ينقل المولدون كلمة من لغة اجنبية الى اللغة العربية ، وتختص باسم « مولدة » للتفرقة بينها وبين الكلمات التي عربها العرب انفسهم .

من ذلك مثلا ـ كما يقول الجواليقي ـ كلمة (قطربل) فهي كلمة اعجمية ، وليس لها مثال فى كلام العرب البتة ، ولا توجد فى الشعر القديم ، وانما ذكرها المحدثون .

ومن ذلك ـ كما يقول الخفاجي ـ كلمة (شاش) معروف ، يلف على الراس وبعد اللف يسمى عمامة ، وهو مولد منقول من اللغة الهندية .

أما التحويل من المعنى اللغوي فيقصد به أن يكون للكلمة معنى معين ، استعملت به عند العرب ثم حولها المولدون عن هذا المعنى الى معنى آخر ، واستعملوها فيه .

ومن ذلك مثلا كلمة (منخطف اللون) لمن تغير لونه بسرعة ، فكأنه خطفه خاطف والعرب لم تقله ، وانما ولده المولدون .

واذا لوحظ أن هذا المصدر الاخير يتعلق بتطور معاني الكلمات ، وأن هذا التطور فى حركة دائبة لا تتوقف ، لا تضح ان هذا المصدر من مصادر التوليد ، يصعب احصاء الكلمات الناتجة عنه ، ومع ذلك فقد أورد العلماء بعض نماذجه فيما ذكروه من نماذج التوليد المتناثرة .

وسأقدم هنا عشر كلمات من المولد فقط ، ومن كتاب واحد هو (شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل) مرتبة حسبما وردت فى ذلك الكتاب مع ذكر تعليق الخفاجي عليها ، لربطها بعد ذلك بمصادر التوليد السابقة ، وهي :

1 ـ بطاقة : بمعنى رقعة صغيرة ، مولدة ، وجاء فى فقه اللغة : انها معربة عن الرومية .

2 ـ الجريدة : دفتر ارزاق الجيش فى الديوان، وهو اسم مولد .

3 ـ شراقى : التشريق عند اهل مصر الا تسقى الارض بماء النيل ، والارض يقال لها شراقى وهي مولدة ، مأخوذة من التشريق ، بمعنى التقديد ، لانها متقددة .

4 ـ طلبق : قال : اطال الله بقاءك ، وهي مولدة

5 ـ فوارة الماء : معروفة ، وهي مولدة ، قال الشريف العقيلي :

من حول فوارة مركبـــــة
قد انحنى ظهر مائهـا تعبـــا

6 ـ فذلكة : لفظة مولدة ، سمعتها ، وعرفت معناهـــــا .

7 ـ قصف : بمعنى اللهو ، استعمله المولدون في اشعارهم ، واصل معناه كرغض صغير .

8 ـ كيمياء : لفة مولدة من اليونانية ، واصل معناها الحيلة والحذق .

9 ـ ماهية : بمعنى الحقيقـــة ، نسبـــة الى (ماهو ؟ !) مولدة ، لم تسمع .

10 ـ مقامة : مولدة محدثة ، لم تقع في كلام احد من المتقدمين ، لكن لها وجه من المجاز ، حيـــث سموا ما يقام في المجلس من حديث (مقامة) (12) .

وبملاحظة الكلمات العشر السابقة والتعليق عليها يتبين انه يتمثل فيها مصادر التوليد الثلاثة السابقـــة كلها وقد يجتمع في كلمة واحدة اكثر من مصدر واحد، كما في كلمة (شراقي) ففيها الاشتقاق والتحويل .

فالاشتقاق واضح في الكلمات المولدة (شراقي ـ طلبق ـ فوارة ـ فذلكة ـ ماهية)

والتعريب واضح في الكلمات المولدة (بطاقة ـ جريدة ـ كيمياء) .

والتحويل عن المعنى بين في الكلمتين (قصف ـ مقامـــة) .

وليس ثمة داع ماس لتفصيل الكلام في كل كلمة على حـــــدة .

وبعـــــد :

فقد تكفلت هذه الفقرة ببيان ما يتعلق بالتوليد من حيث معناه ومصادره الدراسية واللغوية .

اما ما يتعلق بنظرة علمائنا الاقدمين له من حيث التصويب والتخطئة فهو موضوع الفقرة التاليـــة ان شـــاء الله .

— ◆ —

نظرة النحاة للتوليد في ظل الاصرار على نقاء اللغة :

قبل الحديث المباشر عن نظرة النحاة للمولـــد ينبغي التنبيه الى الامور الآتية :

اولا : التفريق بين المولـــدين والاستشهـــاد بشعرهم في دراسة اللغة بمستوياتها المختلفة وبين ما نحن بصدده من الحكم على ظاهرة خاصة هي الالفـــاظ التي يعقب عليها بكلمة « مولد » او « مولدة » .

والامر الاول موضعه الاستشهاد باللغة ، ويحتاج الى تفصيل واسع خلاصته أن علماءنا الاقدمين قد نظروا الى المولدين عموما بشك وريبة ، وترتب على ذلـــك المبالغة في التصون من كلامهم ، واعتمدوا في هـــذا التصون على التحديد الزمني الذي اختلف مـــداه بين التشدد التام والتسامح النسبي ، فأبو عمرو بن العلاء كان لا يحتج ببيت اسلامي قط ، واشتهر عنه قولـــه « لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته يعني بذلك شعر جرير والفرزدق » فالشعـــر الجاهلي وحده هو الجدير بالعناية والدراسة لديه ، وما عداه مرفوض . اما الاصمعي وغالبية العلماء فقد تسامحوا نوعا في نظرتهم للتحديد الزمني ، وعلى ما هو المشهور عنهم قبلوا ما جاء من مادة اللغة حتى حوالي منتصف القرن الثاني الهجري تقريبا ، وشملت هـــذه الفترة بالطبع كثيرا من المولدين الذين روى العلمـــاء شعرهم ، واعتبروه حجة ، كما يوضح ذلك النص الآتي:

* عن ابي حاتم عن الأصمعي قال : عمر بن ابـــي ربيعة مولد ، وهو حجة ، سمعت ابا عمرو ابن العـــلاء يحتج في النحو بشعره ويقول : هو حجة .

وفضلة بن شريك الأسدي وابن الرقيات ، هؤلاء مولدون ، وشعرهم حجة (13) .

ثـانيـــا : ان النظرة التي نرصدها هنا تتعلق بالألفاظ المولـــدة من حيـــث صيغهـــا الشكليـــة لا من حيث معانيها ، فقد قبلت الالفاظ المولـــدة من حيث المعنى ، لكنها رفضت من حيث النظرة اللغوية ، وترتب على ذلك ان تعتبر الكلمة فصيحة ، لكنها مرفوضة لغويا لانها مولدة ، وان تدرس في الادب ، لتعبيرهـــا عن المعنى ، لكنها تعارض في دراسة اللغـــة ، لانهـــا ليست من كلام العرب .

---

(12) انظر : « شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل» الصفحات الآتية على التوالي : 36 ـ 62 ـ 115 ـ 129 ـ 152 ـ 153 ـ 154 ـ 167 ـ 186 ـ 189 .

(13) فحولـــة الشعـــراء ، ص : 39 .

* كان الاصمعي يقول : النحرير ليس من كلام العرب ، وانما هي مولدة ، وقد جاء في الشعر الفصيح، قال الأسود بن يعفر :

يوم لا ينفع الرواغ ولا يقدم الا المشع النحرير (14)

* وقال ابن جني : المعاني يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون (15) .

ثالثا : ان نظرة علمائنا الاقدمين للمولد من حيث التصويب والتخطئة لم ترد عنهم - فيما أعلم - بصراحة وحسم ، وبعبارة اخرى : لم يدرس التوليد في الالفاظ - حتى عند المتأخرين - باعتباره موضوعا متكاملا يتبين منه موقفهم المباشر منه والذي جاء عنهم في ذلك الموضوع تعليقات قصيرة متفرقة على بعض الأمثلة المتناثرة التي تذكر في المعاجم أو كتب اللحن والتعريب .

لذلك ، فان رصد موقفهم من الالفاظ المولدة يعتمد على هذه التعليقات وتجميعها وقد تبين منها انهم حكموا عليها بالآتي :

1 - الالفاظ المولدة ليست من كلام العرب .

2 - بعض الالفاظ المولدة خطأ .

وينبغي تقديم نماذج تثبت هاتين الفكرتين أولا ، لمعرفة المستوى الصوابي لنظرتهم اخيرا .

وقبل عرض هذه النماذج ينبغي ايضا التنبه الى ان معظم امثلة المولد مسكوت عن التعليق عليه فيما يخص الفكرتين السابقتين ، وهذا المسكوت عنه لا يثبت حكما ولا ينفيه . اذ يقتصر مع وروده على انه مولد فقط ، وعرض امثلة منه امر سهل ، ولكنها لا تفيد كثيرا في معرفة نظرة العلماء اليه ، ولذا كان من الافضل الاقتصار على ايراد نماذج من الامثلة التي ذكر معها آراء العلماء حول الفكرتين السابقتين لاثباتهما .

المجموعة الاولى :

1 - قول العامة : هم فعلت مكان ايضا ، وبس مكان حسب ، وله بخت مكان حظ ، كله مولد ، ليس من كلام العرب (16) .

2 - اطراف : جمع (طرف) بالسكون مولد ، وانما هو جمع طرف بالفتح .

قال الخليل : الطرف لا يثنى ولا يجمع ، لانه مصدر (طرف) اذا حرك طرفه وفي الفائق : انه لم يرد به سماع (17) .

3 - التشويش : شوش بمعنى خلط ، واجمع اهل اللغة على ان التشويش لا اصل له في العربية ، وانه من كلام المولدين (18) .

4 - الأنانية : هي اختراع محض لا اصل لها (19) .

فالعبارات التي وردت مع هذه الامثلة بعد الحكم عليها بأنها « مولد » هي « ليس من كلام العرب » و « لم يرد به سماع » و « لا اصل له في العربية » و « اختراع محض لا اصل لها » يفهم منها ان كلام العرب صاحب الاصل الذي ورد به السماع قد اعتمد على تحديده بعرف علمي اعتمد على زمن محدد في الحضر ، وان هذا الزمن الذي امتد الى حوالي منتصف القرن الثاني الهجري على ما هو المشهور قد وقف حاجزا علميا يجعل ما وراءه من كلام العرب ، وما يأتي بعد ذلك ليس من كلامهم وهو اختراع محض لا اصل له .

المجموعة الثانية :

1 - الطرش : ليس بعربي محض ، بل هو من كلام المولدين ، وهو بمنزلة الصمم عندهم (20) . قال ابو حاتم : لم يرضوا باللكنة حتى صرفوا له فعلا ، فقالوا : طرش يطرش طرشا .

2 - الكشخنة : مولدة ، وليست بصحيحة (21) .

3 - وتقول : (هذا جواب كثير) .

قال العسكري : والعامة تقول في جمع الجواب جوابات واجوبة ، وهو خطأ لان الجواب مثل الذهاب .

---

(14) المعرب من الكلام الاعجمي ، ص : 331 .
(15) الخصائص ط ص 24 .
(16) ذيل الفصيح ، ص : 116 .
(17) ، (18) شفاء العليل ، ص : 14 - 15 .
(19) التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ، ص : 12 .
(20) ، (21) المعرب من الكلام الأعجمي ص : 224 - 281 .

وقال سيبويه : الجواب لا يجمع ، وقولهم : جوابات كثير وأجوبة كثير مولد ، وانما يقال : جواب كثير (22) .

4 ـ وتقول : شوشت الشيء اذا خلطته ، فأما التشويش فاجمع أهل اللغة انه لا أصل له في العربية ، وانه مولد ، وخطئوا الليث فيه (23) .

5 ـ انحفظ وانقرأ وانكتب : مستحدث ، استحدثه المولدون مما لا يعتمد بوجوده ولا يعبأ بكونه (24) .

فقد وصفت الكلمات المولدة السابقة باللكنة أو عدم الصحة او الخطأ ، او انها مما لا يعتمد وجوده ولا يعبأ بكونه ، وكلها تدور حول معنى الرفض والتخطئة ، والدارس في ذلك أمام احتمالين :

أولهما : أن الحكم بالتخطئة على بعض الالفاظ المولدة خاص بتلك الالفاظ وحدها ، ويترتب على ذلك امر آخر هو : أن من الالفاظ المولدة ما هو خطأ ، كالنماذج السابقة ، وما هو صحيح ، وهو ما لم يصرح بشيء عنه .

وثانيهما : أن الحكم على بعض نماذج المولد بالخطأ ينسب أيضا على المسكوت عنه ، مع تخصيص المقصود من الخطأ في عرف علماء اللغة بأنه الخطأ الذي يخرج المولد به عن كلام العرب الذي يصح الاحتجاج به ، وان كان المولد بذلك الاعتبار لا يخرج عن صحة الاستعمال في التعبير عن المعاني عند المتأخرين .

وليس لدى من الأدلة الحاسمة ما ارجح به أحد الاحتمالين ، وان كنت أميل الى الاحتمال الثاني اعتمادا على ان علماءنا قد أخرجوا المولد من الكلام العربي في تعريفهم النظري له ، وفي نصهم على ذلك في بعض امثلته ، ولما هو معروف عنهم من اعتمادهم على التحديد الزمني الذي بمقتضاه رفض ما جاء بعد ذلك من الظواهر اللغوية الجديدة ومنها المولد .

اخيرا :

نتساءل عن المستوى الصوابي الذي وجه نظرتهم للمولد من الالفاظ ، فاخرجوه به عن كلام العرب ؛ وحكموا على بعضه بخطأ الاستخدام في دراسة اللغة ، انه باختصار (**التحديد الزمني المعتمد على عرف العلماء لا الاستعمال اللغوي المعتمد على عرف المتكلمين)** هذا هو الاساس !!

اما مدى توفيقهم فيه ، فله موضع آخر في القسم الاخير ان شاء الله .

المعرب

ينبغي منذ البداية الاعتراف بأن الخوض في موضوع التعريب والحديث عن المعرب من الكلمات أمر لا سهولة فيه ولا يسر .

ذلك انه ينبغي لمن يتصدى لهذا الموضوع أن يكون على دراية كافية بعدد من اللغات التي يقال ان العرب قد نقلوا قديما من الفاظها ، وذلك كي يتمكن من التمييز بين ما هو معرب حقا وله أصل أجنبي ، وما ادعي فيه التعريب من الكلمات دون سند علمي يعتمد به ، كما نص على ذلك علماؤنا الاقدمون أنفسهم .

يضاف لذلك ما يجب من الملم الدارس لهذا الموضوع بقدر كاف من دراسة الاصوات والصرف من وجهة نظر الاقدمين ، ليكون فهمه لآرائهم عن ضوابط المعرب متسما بالموضوعية والانصاف لهم ولنفسه .

وقبل كل ذلك ينبغي التتبع الشامل الدقيق للظروف التي هيأت للكلام الاعجمي طريقه للسان العرب ، وهي ظروف متنوعة ومتشابكة اجتماعيا ولغويا ، خصوصا مع المدى الزمني الطويل الذي حدث فيه اللقاء بين العرب وغيرهم من الامم .

هذا ما ينبغي ان يتهيأ لدراسة موضوع التعريب ، وهو ـ بحق ـ جهد ثقيل ليس في طوقي الآن الوفاء به ، كما انه ليس من هدف هذا البحث الوفاء به ، اذ هو

---

(22) تقويم اللسان ورقة 11 .
(23) ذيل الفصيح ص 108 .
(24) سهم الالحاظ في وهم الالفاظ ورقة 5 .

مخصص للنظر الى قضية معينة هي « الصواب والخطأ» وهو بذلك لا يتسع للاستقصاء والتتبع .

والكلمات المعربة باعتبارها ظاهرة طارئة على اللغة العربية الاصيلة ، فقد نظر اليها العلماء بحذر ، وقاوموها بوضع شرائط الصياغة وسمات التعريب .

لذلك فان ما يدخل فى امكاني وامكان هذا البحث هو رسم صورة واضحة الملامح ـ وان كانت مختصرة ـ للأمور الثلاثة الآتية :

1 ـ حركة التعريب وتطورها استعمالا ودراسة .

2 ـ جهود الاقدمين لاخضاع المفرب لمسلك الصيغ العربية .

3 ـ المستوى الصوابي فى نظرة الاقدمين للمعرب بين شرائط الصياغة والاستعمال .

حركة التعريب وتطورها استعمالا ودراسة :

فى كتابة هذه الفقرة ينبغي بيان الامرين الآتيين :

1 ـ الصورة العلمية لحركة التعريب فى الكلام العربي فى عصر الاستشهاد فى الحضر .

2 ـ الصورة العلمية لدراسة المعرب فى الكلام العربي بعد عصر الاستشهاد .

من الحق ان الدارس لا يملك النصوص الكثيرة لاثبات وجود الكلمات المعربة فى اللغة العربية فى الجاهلية ، ولكن هناك من الظروف والادلة ما يقطع بحدوث ذلك فيها ، فالعرب فى الجاهلية لم تكن أمة منطوية على نفسها ، بل فرضت عليهم ظروف حياتهم الاتصال بمن جاورهم من الامم ، سواء اكان ذلك عن طريق التجارة او الغزو او الوفادة ، وهذه كلها وسائل للمخالطة واللقاء ، ويستتبعها نقل الالفاظ من اللغات الاخرى ، وتداولها بين العرب ولقد استعمل بعض الشعراء الجاهليين الفاظا غريبة فى شعره مما دعا العلماء فيما بعد الى عدم الاحتجاج به ، فأمية بن أبي الصلت مثلا كان ـ فيما يقال ـ يستعمل الفاظا غريبة فى شعره فيسمى الآله « السلطليط » والسماء « صاقورة وحاقورة » وأغلب الظن أن هذه الالفاظ كلها لم تكن من ابتداعه ، بل كانت مما اطلع عليه فى الكتب الدينية التي يقال انه كان يداوم قراءتها ، و « عدى بن زيد العبادي » كان من نصرانيى الحيرة ، وقد عاش فترة فى البلاط الفارسي ، والمعتقد أن هذه الفترة قد انعكس تأثيرها عليه حضاريا ، فلان شعره ، كما انعكس تأثيرها عليه فى نقل الفاظ من الفارسية واستخدامها بين العرب .

ولم تكن الوفود العربية تنقطع عن الرحلات الى بلاد الفرس والروم والحيرة وغسان والحبشة والهند، والنتيجة بالضرورة تبادل الالفاظ بين العرب والاجانب .

والدليل العلمي الحاسم على وجود المعرب من الالفاظ فى الجاهلية هو القرآن الكريم ، فقد احتوى على الفاظ كثيرة وصفها بعض الصحابة والتابعين ـ فيما روي عنهم ـ انها من غير لغة العرب ، كما الف العلماء فى ذلك كتبا خاصة ، وصنف السيوطي وحده كتابين فى هذا الموضوع هما : « المتوكلى فيما فى القرآن من المعرب » و « المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب » وقد جمع فيهما ـ كما هي عادته ـ مجهودات السابقين عليه فى الافكار والالفاظ .

ووجود المعرب فى القرآن قضية علمية اختلف حولها العلماء اختلافا كبيرا على رايين : احدهما : وجود المعرب فى القرآن ، والى ذلك ذهب بعض الصحابة والتابعين والعلماء منهم ابن عباس ووهب بن منبه وابن مسعود وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وعطاء والضحاك ، والسدى وابو عمران الجوينى وعمرو بن شرحبيل وابو موسى الاشعري والزمخشري وابن الحاجب والسيوطي وغيرهم .

وثانيهما : أن القرآن لا يحتوي على غير العربي من الالفاظ ، وهو مذهب كثير من العلماء ومنهم الامام الشافعي وابو عبيدة وابن فارس وابن جرير الطبري ، والباقلاني والرازي وغيرهم (25) .

وليس مما يفيد كثيرا هنا عرض التفاصيل لكلا الرايين وادلتهما والرد عليها ، وانما المفيد فى ذلك فهم الامور الآتية :

---

(25) راجع : المعرب فى القرآن الكريم ص 199 .

اولا : ان الدارسين المتأخرين قد ارتضوا الرواية التالية عن ابي عبيد القاسم بن سلام ، وكأنما وجدوا فيها حلا لهذه القضية ، وخروجا من هذا الخلاف ، وقد اوردها الجواليقي بعد ان اورد قول ابي عبيدة : من زعم ان فى القرآن لسانا سوى العربية فقد اعظم على الله القول ، واحتج بقوله تعالى « انا جعلناه قرآنا عربيا » — والرواية هي :

* قال ابو عبيد : وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم فى احرف كثيرة انه من غير لسان العرب ، مثل (سجيل والمشكاة واليم والطور وابارِيق واستبرق) وغير ذلك فهؤلاء اعلم بالتأويل من ابي عبيدة ، ولكنهم ذهبوا الى مذهب ، وذهب هذا الى غيره ، وكلاهما مصيب ان شاء الله تعالى .

وذلك ان هذه الحروف بغير لسان العرب فى الأصل ، فقال اولئك على الأصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعربته ، فصار عربيا اياه ، فهى عربية فى هذه الحال ، اعجمية الاصل فهذا القول يصدق الفريقين جميعا (26) .

وقد نقل هذه الرواية نفسها من جاء بعد الجواليقي ودرس موضوع التعريب فى القرآن كالسيوطي وغيره .

ثانيا : انه سواء اكانت الالفاظ الواردة فى القرآن من لغات اخرى اعجمية باعتبار الاصل عربية باعتبار الحال : او اعجمية باعتبار الاصل والحال ، فان ورودها فى القرآن يدل على ان العرب قد فهموها وتقبلوها ، وفهمهم لها يدل على شيوعها بينهم من قبل ان يأتيهم بها ، وهذا يثبت ما نحن بصدده من وجود الالفاظ المنقولة من لغات اخرى فى الجاهلية ، ومن استمرار ذلك حين جاء الاسلام .

ثالثا : يبدو ان الذين رفضوا وجود المعرب فى القرآن سيطر عليهم الوازع الديني اكثر من تقرير الواقع اللغوي ، ولذلك فان السيوطي حين اورد هذه الالفاظ فى كتابه ساق بين يديها اسانيد نسبتها الى الصحابة والتابعين ، كأنما يتحرز هو ايضا من القول بذلك بنفسه ، وقد عدد اللغات المنقول عنها تلك الالفاظ ، فأوصلها الى عشر ، وهي الحبشية والفارسية والرومية والهندية والسريانية والعبرانية والنبطية والقبطية والتركية والزنجية والبربرية ،

وذكر تحت كل لغة الالفاظ المعربة منها فى القرآن ، وعددها جميعا 124 كلمة ، ومن نماذج ذلك :

* اخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله تعالى (تتخذون منه سكرا) قال : السكر بلسان الحبشة : الخل .

* اخرج ابن ابي حاتم عن الضحاك قال : الاستبرق : الديباج الغليظ بالفارسية .

* اخرج ابن المنذر عن وهب بن منبه فى قوله تعالى (فصرهن) قال : قطعهن بالرومية .

* اخرج ابو الشيخ عن جعفر بن محمد عن ابيه فى قوله تعالى (يا ارض ابلعي ماءك) اشربي بلغة الهند .

* اخرج ابن ابي حاتم عن الضحاك فى قوله تعالى : (يحمل اسفارا) قال : كتبا ، والكتاب بالنبطية يسمى سفرا (27) .

ولا يستطيع المرء الجزم القاطع بصحة نسبة هذه الالفاظ فى القرآن الى اللغات التي قيل انها جاءت منها ولا بصحة نسبة هذه الروايات المسندة الى الصحابة والتابعين ، لان ذلك يحتاج لمعرفة تلك اللغات فى العصور القديمة مما لا يتوافر لي ، ولعل ذلك لم يتوافر لمن نسب اليهم ذلك من الصحابة والتابعين والدارسين من العلماء .

والذي اعتقده ان كلمة (بلع) عربية اصيلة قال عنها صاحب القاموس (بلعه كسمعه ابتلعه) .

---

(26) المعرب من الكلام الاعجمي ص 4 — 5 .

(27) انظر فى هذه النماذج : المتوكلي فيما وقع فى القرآن من المعرب ، الاوراق 3 — 4 — 5 — 6 على التوالي .

وان كلمة « سقر » كلمة موجودة فى اللغة العبرية « שקר » فهل كانت موجودة فى النبطية ايضا قبلهما كليهما او معهما ؟ ربما !! وهذا يدفع الى كثير من الحذر فى اخذ هذه الاقوال وتلقيها ، وغايه ما يستطاع قوله : ان هذه الاقوال تدل بمجرد ورودها على وقوع الفاظ معربة فى الكلام العربي فى عصور مبكرة ، وقد استخدم القرآن بعض هذه الالفاظ حين نزل لمخاطبة العـــرب .

ومع مجيء الاسلام ازداد اختـــلاط العـــرب بالاجانب بالفتح والهجرات والرق والخدمة ، ويترتب على ذلك استخدام الالفاظ الاجنبيـــة فى العربيـــة ، ووجود الفاظ عربية فى اللغات التي احتكت بالعربية ، وهذه الالفاظ المعربة قد ضم الكثير منها فيما بعـــد المعاجم العربية والمصنفات الخاصة بالتعريب دون اشارة الى تاريخ استخدامها فى اللغة العربية . ومع ذلك فمن المؤكد ان حركة النقل اللغوي فى القـــرن الاول قد استمرت وزادت عما كان عليـــه الامـــر فى الجاهليـــة .

على ان اهم موقف واجه العرب فيمـــا يتعلـــق بالتعريب جاء فى بداية القرن الثاني الهجري حيـــن اتسع نشاط الثقافة العربية تاليفا وترجمة فازدادت الحاجه لكلمات جديدة ومصطلحات جديدة ، يقـــول السيوطي : « قال محمد بن علي الخراساني : المنصور اول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والاعجميـــة بالعربية ككتاب كليلة ودمنة واقليدس » (28) والذي اعتقده ان حركة الترجمة نشطت قبل المنصور بزمن بعيد ، واستمرت بعده فى ازدياد وقوة . والمهم ان العرب واجهوا موقفا لغويا جديـــدا لسد حاجتهـــم لمتطلبات التاليف والترجمة ، وتغلبوا على ذلك بأمرين:

الاول : التصرف فى مدلول الكلمات العربيـــة الاصل مثل الفاعل والمفعول والموضوع والمحمـــول وذلك بتحويل المعنى اللغوي الى معنى اصطلاحي .

الثاني : نقل الالفاظ الاعجمية نفسها الى اللغة العربية ، واكثر ما كان ذلك فى اسماء النبات والحيوان والآلات والامراض والمآكل وسلع التجارة .

وفى حوالي منتصف القرن الثاني الهجري توقف الاستشهاد باللغة فى الحضر ، وشمل ذلـك ايضـــا ظاهرة التعريب فى الالفاظ ، اما ما نقل بعد تلك الفترة من الالفاظ الاجنبية ، فقد اطلق عليها اسم « المولد » وقد تقدمت دراسته .

ذلك عرض مختصر لحركة التعريب فى فتـــرة الاستشهاد ، فكيف تمت دراسته بعد ذلك ؟؟

كان من الطبيعي أن يهتم علماؤنا ـ رحمهم الله ـ بظاهرة التعريب كما اهتموا بغيرها من الظواهر الطارئة على الكلام العربي ، وذلك بهدف دراستهـــا وجمـــع روايات السابقين المتناثرة عنها والتمييز بين الكلمات المعربة وغيرها .

وفى رصد جهود العلماء فى هذه الظاهرة يتبين انه قد تناولها اولا النحاة واصحاب المعاجم والفقهاء والمفسرون تناولا سريعا فى اطار الاتجـــاه العـــام لمؤلفاتهم .

فالنحاة تناولوا هذه الظاهرة مهتمين ببنيـــة الكلمات المعربة ، وخضوعها لشرائط الصياغة العربية، كما تناولوها ايضا فى باب علل الممنـــوع من الصرف وبدأ ذلك بكتاب سيبويه الذي جاء فيه عنوان نصه : « هذا باب ما اعرب من الاعجميـــة (ج 2 ص 342) ، واورد تحت هذا العنوان ما يتعلق بابدال الحـــروف وطرق الصياغة والالحاق للكلمات المعربة ، وتابعه على ذلك النحاة بعده .

واما اصحاب المعاجم فيوردون بعض الكلمـــات المعربة لذكر معانيها ، ويقفون على ذلك بأنها معربة مع النص على اللغة التي عربت منها .

اما الفقهاء والمفسرون فقد اهمهم من ذلك كله وقوع المعرب فى القرآن الكريم ومناقشة هذه الناحية بالرفض او القبول ، فالامام الشافعي (ض) تنـــاول هذا الموضوع فى كتابه (الرسالـــة ص 41 ـ 45) فأثبت انه لا يوجد فى القرآن غير العربي ، ورفـــض آراء المخالفين له فى تلك الفكرة .

اما تخصيص ظاهرة التعريب وكلماته بمؤلفات مستقلة ، فقد تأخر ـ فيما اعلم ـ الى القرن السادس الهجري ، وبدأ ذلك بكتاب الجواليقي (المعرب من الكلام الاعجمي) وتوالت بعده الجهود الخاصة بتلـك الظاهرة بقلة اولا ، ثم بكثرة فى العصر الحديث كما يتضح ذلك من الجدول الآتي لهذه المؤلفات مرتبـــة بحسب وفاة مؤلفيها مما دخل فى امكاني معرفته :

---

(28) تاريـــخ الخلفـــاء ص : 105 .

اسم الكتاب	المؤلف وتاريخ الوفاة او طبع الكتاب	الاشارة الى وجوده
1 ـ المعرب من الكلام الأعجمي	لأبي منصور الجواليقي (ت 539)	مطبوع
2 ـ التذييل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل	عبد الله بن محمد البشبيشي (ت 820)	مخطوط
3 ـ المتوكلى فيما فى القرآن من المعرب	جلال الدين السيوطي (ت 911)	مخطوط
4 ـ المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب	جلال الدين السيوطي (ت 911)	مخطوط
5 ـ التعريب (رسالة)	ابن كمال باشا (ت 940)	مخطوط
6 ـ شفاء الفليل فيما فى كلام العرب من الدخيل	شهاب الدين الخفاجي (ت 1096)	مخطوط
7 ـ المعرب والدخيل	مصطفى المدني (قرن \ 11)	مطبوع
8 ـ قصد السبيل فيما فى اللغة من الدخيل	محمد الامين المحبي (ت 1111)	مخطوط
9 ـ الطراز المذهب فى الدخيل والمعرب	محمد نهاني (ت 1185)	مطبوع
10 ـ المعرب فى القرآن الكريم	احمد القوصي (ت قرن \ 13)	مخطوط
11 ـ الدليل الى مرادف العامي والدخيل	رشيد عطية البناني (ت 1898 م)	مطبوع
12 ـ التقريب لأصول التعريب	طاهر بن صالح الدمشقي (طبع 1337)	مطبوع
13 ـ التهذيب فى اصول التعريب	احمد عيسى (طبع 1342)	مطبوع
14 ـ الاشتقاق والتعريب	مصطفى المغربي (طبع 1366)	مطبوع

ويلاحظ على هذه الجهود ما يلي :

اولا : ان التأليف فى هذه الظاهرة قد تأخر نسبيا عن غيرها من الظواهر اللغوية التي تناولتها فترة المراجعة فى القرن الرابع وما تلاه ، ولعل ذلك يعود الى صعوبة الحديث عن هذه الظاهرة ، لما تستلزمه من معرفة لغات متعددة للحديث فيها ، وهذا لا يتيسر للكثير من الناس ، ولعل هذا يفسر اعتماد هذه المؤلفات كثيرا على اقوال السابقين ـ مسندة احيانا ـ فى القول بالمعرب .

ثانيا : وضحت ظاهرة اخرى فى كتب التعريب ، وهي التمهيد لذكر الكلمات المعربة بمقدمة علمية تتناول الافكار الخاصة بهذه الظاهرة ، كتحديد معناه وفائدته وضوابط النحاة له ، ووقوعه فى القرآن ، وغير ذلك مما يفيد منه الدارس فائدة حقيقية ، ومما لم يحدث لظواهر اخرى مماثلة كاللحن والتوليد مثلا .

ثالثا : كلمة (الدخيل) جعلت عنوانا لبعض هذه الكتب مستقلة او مع غيرها من المعرب أو العامي ، ويبدو ان هذه الكلمة اعم من كلمة المعرب ، اذ تشمل ما نقل الى لغة العرب سواء جرت عليه احكام التعريب أو لم تجر عليه ، وسواء اكان فى عصر الاستشهاد أو بعده ، وهو ما اطلق عليه اسم « المولد » .

رابعا : الكتب الاربعة الاخيرة مؤلفة حديثا ، ولذلك فان مادتها العلمية لا تقتصر على تناول المعرب قديما فحسب ، بل تزيد عليه ما حدث فى العصر الحديث من ذلك .

واخيرا : فقد كانت هذه الفقرة خاصة بتوضيح الحركة العلمية للتعريب استعمالا ودراسة ويهمنا منها الجانب اللغوي الذي تتكفل ببيانه الفقرة التالية ان شاء الله .

نظرة الاقدمين للمعرب وجهودهم فى اخضاعه لمسلك الصيغ العربية

دارت دراسة علماء اللغة الاقدمين للمعرب حول تحديد معناه ، والمقصود منه ، ووضع الضوابط لصيغه ، ومعرفة هذه الامور الثلاثة تؤدي الى استخلاص المستوى الصوابي لموقفهم منه .

وعلى هذا فان منهج كتابة هذه الفقرة يتحدد بالآتي :

1 — التحديد النظري لمعنى المعرب .

2 — المقصود بالمعرب فيما نقل من اللغات الاعجمية الى العربية .

3 — جهود النحاة فى اخضاع المعرب لمسلك الصيغ العربية .

4 — المستوى الصوابي لموقف الاقدمين من المعرب.

التعريب باختصار هو : نقل الكلمة مع عرفها الاجنبي ، وحول هذا المعنى جاءت تعريفات الاقدمين النظرية له :

* قال سيبويه : اعلم انهم مما يغيرون من الحروف الاعجمية ما ليس من حروفهم البتة، فربما الحقوا ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه (29) .

* وجاء فى شفاء العليل : التعريب نقل اللفظ من العجمية الى العربية ، والمشهور فيه التعريب وسماه سيبويه وغيره اعرابا ، فيقال حينئذ معرب ومعرب (30) .

* وجاء فى الطراز المذهب : التعريب من باب التفعيل ، ومن معانيه التكلف ، لان العرب تكلفوا ادخال اللفظ العجمي فى لغتهم ، وتصرفوا فيه بالتغيير عن منهاجه ، والتغيير فيه أكثر من عدمه ، واجروه على وجه الاعراب ، وتفوهوا به على منهجهم (31) .

ويتضح من هذه التعريفات الثلاث السابقة انها تتجه جميعا الى وصف الناحية العملية واللفظية فى عملية التعريب ، اذ ينقل العرب هذه الالفاظ أو يغيرونها — حين يأخذونها — كما عبر سيبويه ، أو يتكلفون ادخالها فى لغتهم كما فهم غيره من معنى التعريب ، ويترتب على ذلك أحكام لفظية من الحاق أو تغيير أو اعراب .

اما ناحية معنى الكلمة المعربة فقد انصرفوا عن التعرض لها فى هذه التعريفات ، ويبدو ان سبب الانصراف عن ذلك هو شيوع العرف بين العلماء من ان الكلمة المنقولة من لغة أخرى تنقل ومعها معناها فى اللغة المنقول عنها قبل أن تعرب ، كما جاء فى كشاف اصطلاحات الفنون نص على هذه الناحية ، اذ قال : « المعرب عند اهل العربية لفظ وضعه غير العرب لمعنى استعمله العرب بناء على ذلك الوضع» (32) وهذا هو الغالب فى استخدام الكلمات المعربة ، وقل أن يحدث تغيير فى معاني الكلمات المنقولة .

وهنا نقطة جانبية تتعلق بلفظة (المعرب) فان سيبويه قد استعمل لفظ (معرب) باسكان العين وفتح الراء ، وكذلك استعمل الفعل (أعرب) ولم يستعمل لفظ (معرب) بفتح العين وتشديد الراء المفتوحة على ما هو المشهور ، وهذا الخلاف فى التعبير لم يترتب عليه خلاف جوهري فى فهم المعنى المقصود ، فسواء عبر بهذا أو بذاك فان المقصود من ذلك هو نقل الكلمة مع عرفها الاجنبي ، وجريانها مجرى الكلمات العربية من حيث الصيغة والاعراب احيانا .

هذا وقد نص العلماء على ما يجب ان يتسم به اللفظ المنقول من لغة أجنبية كي يطلق عليه أنه « معرب » ففرقوا بين ما جاء فى نصوص موثقة كالقرآن والحديث أو ما نقله العرب المعتد بكلامهم وبين ما نقله المولدون الذين لا يعتد بما جاء عنهم ، أو بعبارة أخرى بين ما نقل عن عصر الاستشهاد فى الحضر وما استعمل بعد ذلك العصر ، فقبلوا النوع الاول وحكموا بصحته ، وعزلوا النوع الثاني ، واطلقوا عليه اسم « المولد » .

* قال الجواليقي عن كتابه المعرب من الكلام الاعجمي : هذا كتاب تذكر فيه ما تكلمت به

---

(29) كتاب سيبويه ج 2 ص 342 .
(30) شفاء العليل ص 3 .
(31) الطراز المذهب ص 2 .
(32) كشاف اصطلاحات الفنون ج 3 ص 944 .

العرب من الكلام الاعجمي ، وتطق به القرآن المجيد ، وورد في اخبار الرسول (ص) والصحابة والتابعين ، وذكرته العرب في اخبارها واشعارها ، ليعرف الدخيل من الصريح (33) .

* ونقل الخفاجي النص السابق ، ثم زاد عليه قوله: فما عربه المتاخرون يعد مولدا ، وكثيرا ما يقع مثله في كتب الحكمة والطب (34) .

وينبغي التنبيه الى انه يفهم من عبارات الاقدمين مثل (ما ذكرته العرب) أو (ما تكلمت به العرب) أو (ما نطقت به العرب) عرف خاص لدى علماء اللغة يقصد به المادة اللغوية الموثقة في عصر الاحتجاج ، وبذلك يفهم من كلام الجواليقي أن المعرب لا يطلق الا على الكلمات التي استخدمها الناطقون من العرب في هذا العصر ، أو التي وردت في نصوص موثقة كالقرآن والحديث ، أما الذي نقله المولدون بعد ذلك فقد نص الخفاجي انه يطلق عليه اسم (المولد) .

ويأتي هنا تساؤل عن موقف التعريب من حيث القياس والسماع ، فهل يعتبر تعريب الكلمات سماعيا، لانه مما استأثر به العرب المحتج بهم وحدهم ، وينبغي الاقتصار على ما استعملوه ونقل عنهم أو يعتبر قياسيا، فيصبح لمن جاء بعد هذا العصر السعيد الحظ أن يعرب كما عربوا ، ويستورد حاجته من الكلمات الاجنبية مثلهم ؟!

واضح أن علماءنا ـ رحمهم الله ـ على الاتجاه الاول ، فالمعرب من الالفاظ لا يعتد به الا اذا ورد عن عصر الاستشهاد ، أما ما يحدث بعد ذلك فلا يعتد به في المعرب الصحيح ولا يصح دخوله في هذا النطاق ، ولذلك اطلق عليه انه « مولد » .

اما عن جهود النحاة العرب في اخضاع المعرب لمسلك الصيغ العربية فانه ينبغي أن يعلم منذ البداية أن هذه الجهود جاءت لتقنن لما قد حدث فعلا ، اذ أن نقل الكلمات الاعجمية الى العربية لم ينتظر قواعد النحاة التي وضعوها للتعريب ليتوافق معها توافقا كليا والناطقون العرب الذين اتصلوا بالاعاجم ، ونقلوا الكلمات من لغاتهم لم يدر في حسبانهم الاتيان بها على صيغ معينة او التزام مطرد لحروف عربية خاصة مكان حروف اخرى في اللغات الاجنبية ، وانما يعرفون الكلمات من غيرهم ، فينطقونها على حسب ما سمعوها، او على حسب مقدرتهم على نطقها ، خصوصا مع لغات لم يكونوا يجيدونها كالفارسية والرومية والهندية وغيرها ، والمتصور أن يأتي هذا النطق موافقا تماما لنطقها في لغتها احيانا او يحدث فيه التغيير في احايين كثيرة ، وهذا التغيير الذي يحدث لا يلتزم دائما طريقة موحدة ـ كما اراد النحاة له من بعد أن يكون ذلك أن النحاة قد نظروا للمعرب من الكلمات الاجنبية من زاوية النظر الى مسلك الكلمات العربية فحاولوا ـ بجهد مشكور ـ ان يضعوا لها قوانين تحكمها مستهدين في ذلك بدراسة اللغة العربية باعتبار أن الكلمات الاجنبية قد استعملها العرب ، ولكن فرض منطق لغة على لغة اخرى ان صح في بعض الامثلة فان امثلة اخرى كثيرة تبقى غير خاضعة له .

وترتب على ذلك أن المطلع على القوانين الدراسية التي وضعوها للمعرب يلاحظ عليها القصور عن تغطية استقرائية صحيحة لامثلة التعريب ، كما يلاحظ ايضا انها غير مطردة على اتجاه واحد ، فالقاعدة الواحدة تحتل وجوها اخرى غيرها تذكر معها ، بحيث لا يؤدي كل ذلك الى نتائج مقنعة ، ولم يكن المنتظر غير ذلك .

وعلى كل فلنتبين اهم ما تعرض له النحاة من قضايا التعريب .

1 ـ الالحاق بابنية العرب

* قال سيبويه : اعلم انهم مما يغيرون من الحروف الاعجمية ما ليس من حروفهم البتة ، فربما الحقوه بابنية كلامهم ، وربما لم يلحقوه .

فاما الذي الحقوه ببناء كلامهم ، فدرهم الحقوه ببناء هجرع ، وبهرج الحقوه بسلهب ، ودينار الحقوه بديماس وديباج الحقوه كذلك ـ وقالوا : اسحاق فالحقوه باعصار ، ويعقوب فالحقوه بيربوع ، وجورب فالحقوه (بفوعل) ـ وقالوا : آجور فالحقوه بعاقول ـ وقالوا : شبارق فالحقوه بعذافر ، ورستاق فالحقوه بقرطاس ، لما ارادوا ان يعربوه ، الحقوه ببناء كلامهم .

---

(33) المعرب من الكلام الاعجمي ص 3 .
(34) شفاء الغليل ص 3 .

ثم عاد سيبويه يقول : وربما تركوا الاسم على حاله ، اذا كانت حروفه من حروفهم كان على بنائهم او لم يكن نحو خراسان وخرم والكركم (35) .

* ويقول ابو حيان : الاسماء الاعجمية على ثلاثة اقسام .

قسم غيرته العرب والحقته بكلامها ، فحكم ابنيته باعتبار الاصلي والزائد والوزن حكم ابنية الاسماء العربية الوضع ، نحو درهم وبهرج .

وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها ، فلا يعتبر فيها ما يعتبر في القسم الذي قبله ، نحو (آجر) .

وقسم شركوه غير مغير ، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم ، لم يعد منها ، وما لحقه ، عدمنها ، مثال الاول خراسان ، لا يثبت به (فعالان) ومثال الثاني خرم الحق بسلم (36) .

والذي يفهم من هذين النصين ان الامر المعتد به لدى النحاة هو الالحاق لا التغيير ، فاذا الحق الاسم بأبنية العرب ـ سواء غير أم لم يغير ـ اخذ احكامها ، او بتعبير سيبويه « لما ارادوا ان يعربوه الحقوه ببناء كلامهم » واذا لم يلحق بأبنيتهم ـ غير او لم يغير ايضا ـ لم يأخذ هذه الاحكام ؛ ويتضح من ذلك ما تقدم قوله من ان النظرة الى المعرب اصطبغت بالصبغة العربية الخالصة تماما وادى ذلك الى التفريق بين صنف واحد من الكلام نقله الناطقون العرب عن الاجانب .

ومن الملاحظات التي ترتبت على هذه النظرة ما يلي :

أ) تعريب الصيغة بحيث تقرب من الموازين الصرفية العربية . وذلك مثل :

فلسفة وهرطقة ـ سفسطة على وزن فعللة
سندس ـ بندق ـ فندق على وزن فعلل
بطريق ـ زنديق على وزن فعليل

ب) تغيير الصيغة الاجنبية لتناسب الصياغة العربية، مثل :

المجوس ـ حلب ـ حمص ـ دمشق ـ ايلة ـ الجليل ـ طبرية ـ صيداء .

ج) الحاق الكلمات الاجنبية الطويلة بالمركب المزجي وذلك مثل :

بزرجمهر ـ شانتمارية

د) ما جاء في النص السابق لأبي حيان من اعتبار الاصلي والزائد والوزن .

هـ) الصرف والمنع من الصرف ، فاذا تمكن المعرب من الكلام العربي ، فدخلته الالف واللام وصار نكرة ، صرف ، وذلك مثل : لجام وسندس واستبرق ، واذا لم يتمكن في كلام العرب وبقي معرفة لديهم ، فانه يمنع من الصرف ، مثل اسماعيل واسحاق ويعقوب .

2 ـ تغيير الحروف والحركات :

* يقول سيبويه : وربما غيروا حاله عن حاله في الاعجمية مع الحاقهم بالعربية غير الحروف العربية فأبدلوا مكان الحرف الذي هو للمعرب عربيا غيره ، وغيروا الحركة ، وابدلوا مكان الزيادة ولا يبلغون به بناء كلامهم ، لانه اعجمي الاصل ، فلا تبلغ قوته عندهم الى ان يبلغ بناءهم وانما دعاهم الى ذلك ان الاعجمية يغيرها دخولها العربية بابدال حروفها ، فحملهم هذا التغيير على ان ابدلوا وغيروا الحركة كما يغيرون في الاضافة ، اذ قالوا : هتي نحو زباني وثقفي وربما حذفوا كما يحذفون في الاضافة ، ويزيدون كما يزيدون فيما يبلغون به البناء وما لا يبلغون به بناءهم ، وذلك نحو آجر وابرسيم واسماعيل وسراويل وفيروز والقهرمان . وقد فعلوا ذا بما الحق ببنائهم وما لم يلحق من التغيير والابدال والزيادة والحذف لما يلزمه من التغيير .

وربما تركوا الإسم على حاله اذا كانت حروفه من حروفهم كان على بنائهم او لم يكن ، نحو خراسان وخرم والكركم (37) .

---

(35) كتاب سيبويه ج 2 ص 342 .
(36) ارتشاف الضرب ورقة ـ 13 .
(37) كتاب سيبويه ج 2 ص 342 .

فلأن الاعجمية يغيرها دخولها العربية ـ كما يقول سيبويه ـ حدث التغيير فى الحروف والحركات بابدال حرف مكان آخر ، أو تغيير الحركة ، أو حذف بعض الحروف فى الصيغة أو الزيادة فيها أو ترك البنية على حالها اذا كانت حروفها من حروفهم .

لكن سمات التغيير ـ على هذه الصفة ـ عامة وغير منضبطة ، بل ولا يستطاع ضبطها بدقة لانها خضعت لتصرف الناطقين لا لصناعة الدارسين ، ولذلك جاء اسلوب سيبويه عن هذا التغيير ـ فى نصه السابق ـ حذرا ، استخدم فيه كلمة (ربما) ثلاث مرات .

وقد نص الاقدمون على بعض المظاهر التي يظن اطراد التغيير فيها ، ومن ذلك مما ذكره الجواليقي :

* ما كان بين الجيم والكاف من الحروف (8) ربما جعلوه جيما ، وربما جعلوه كافا ، وربما جعلوه قافا ، قالوا (كربج) و (كربق) و (كربك) .

* الحرف الذي بين الباء والفاء (P-V) ربما ابدلوه باء وربما ابدلوه فاء .
قالوا : فرند وبرند ـ وقالوا : البهلوية والبالوذة وفارس وفيروز .

* ابدلوا السين من الشين ، قالوا (سراويل واسماعيل) واصلها (شروال واشماويل) .

* وابدلوا اللام من الزاي فى (قفشليل) واصلها (كفلجاز) وجعلوا الكاف منها قافا والجيم شينا، والفتحة كسرة ، والالف ياء .

* ومما ابدلوا حركته (زود ـ آشوب) .

* ومما زادوا فيه ونقصوا (ابريسم واسرافيل وفيروز وقهرمان) واصل الاخير (قرمان) .

* ولما تركوه على حاله ، فلم يغيروه : خراسان وخرم وكركم (38) .

ولو تابع الدارس التأمل فى الكلمات التي حوتها كتب المعرب ، وامكنته قدرة الرجوع الى اللغات الاعجمية التي نقل منها ذلك ، فسيخرج بمظاهر اخرى غير ما نصوا عليه منها ، بل ان الذي نصوا عليه منها لا تطرد ظواهره فى كل الامثلة، ولنتأمل الامثلة الخمس الآتية مما أورده الخفاجي فى شفاء العليل ، حيث يذكر الكلمة واصلها الاجنبي ـ والعهدة عليه فى ذكر هذا الاصل ـ :

1) خندريس : اسم الخمر ، تكلمت به العرب قديما، قيل : هو معرب (كندره ريش) اي شاربها ينتف لحيته ، لذهاب عقله .

2) دهقان : بفتح الدال وكسرها ، معرب عن الفارسية (دهخان) اي رئيس القرية ، ومقدم الزراعة .

3) زنديق : قال ابو حاتم : هو فارسي معرب (زنده كرد) اي عمل الحياة ، لانه يقول ببقاء الدهر ودوامه .

4) سردار : من الفاظ التراكمة ، وهي بالفارسية (اسفهسالار) ومعناه رئيس الجيش .

5) سدير : علم قصر معروف ، وقد قيل : انه معرب من الرومية ، واصله (سهدل) اي فيه ثلاث قباب متداخلة (39) .

ففي المثال الاول : غيرت الكاف خاء مع الشين سينا ـ وهو مما لم ينص عليه الجواليقي فى التغيير .

وفى المثال الثاني : غيرت الخاء قافا ، ولم ينص ايضا على ذلك .

وفى المثال الثالث : يلاحظ النقص فى الصيغة مع ابدال الكاف قافا ، ولم ينص عليه ايضا .

وفى المثال الرابع : تكاد الصلة تنقطع بين الكلمتين ، وان احتوى كل منهما على السين والراء وحرف المد الطويل .

وفى المثال الخامس : يلاحظ ابدال الراء من اللام ومد حركة الدال .

والذي يدل عليه ذلك ان مسلك التغيير فى التعريب لا يضبط بقوانين محددة ، وان ما ذكره العلماء منها يصدق عليه انه ملاحظات غير مطردة ، أو على اقل تقدير ما عبر به بعض المتأخرين الذين درسوا المعرب ، اذ قال : « وهذا كله اغلبي » .

---

(38) راجع : المعرب من الكلام الاعجمي ص 6 وما بعدها .
(39) راجع : شفاء الغليل : الصفحات 76 ـ 86 ـ 97 ـ 112 ـ 114 على التوالي .

3 ـ علامات المعرب :

جانب آخر من جوانب الجهد الذي بذله علماؤنا للتمييز بين العربي والمعرب ، وقد اتجه ذلك بصفة خاصة الى بيان صفات الصيغ المعربة من حيث اجتماع الحروف التي لا تجتمع فى العربي أو ذكر أوزان الكلمات التي لا تأتي على مثلها الكلمات العربية .

وقد جمعت كتب التعريب المتأخرة مثل (قصد السبيل فيما فى اللغة العربية من الدخيل) و (المعرب فى القرآن الكريم) ـ راجع الجدول السابق ـ معظم ما ذكر من قبل عن هذين الامرين ، وهو كثير ، يؤدي استقصاؤه هنا الى التطويل فيما يمكن الرجوع اليه فى المصدرين السابقين .

فان الاوزان التي اختص بها المعرب فيما أورده المصدر الاخير وحده بلغت 72 وزنا وقد عدها وذكر أمثلتها .

ويكفي هنا ذكر نماذج ثلاثة لكل من هذين الامرين من علامات التعريب على سبيل التمثيل لا الحصر :

اولا :

1) لم تجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية ، فمتى جاءتا فى كلمة ، فاعلم انها معربة ، ومن ذلك (جلوبق) و (جرندق) .

2) لا تجتمع الصاد والجيم فى كلمة عربية ، ومن ذلك (الجص) و (الصيجة) .

3) ليس فى ابنية العرب اسم فيه نون بعدها راء ، وما جاء من ذلك معرب مثل (نرجس) و (نرسيان) (40) .

ثانيا :

1) ليس فى كلامهم وزن (فعالان) كخراسان .

2) ليس فى كلامهم وزن (فاعيل) كقابيل وهابيل ، وذلك معرب .

3) ليس فى كلامهم وزن (فعاويل) كسراويل وذلك معرب (41) .

والحق ان هذا الجهد الذي بذل فى استقصاء علامات المعرب وتصنيفها يقصر عن الاحاطة بكل ما عرب من الكلمات الاعجمية ، لوضعها فى قواعد تنتظمها ، ويؤكد هذه الدعوى تصفح كتاب واحد يضم كلمات نسب لها التعريب ، فان الانطباع الذي يخرج به المرء من ذلك هو :

ان ما ذكروه من علامات التعريب ملاحظات تصدق على بعض الامثلة ، ويبقى الكثير من الكلمات مما لا يخضع لهذه الملاحظات ، لان ظروف مورده للعرب من لغات متعددة ، وظروف نطقه من العرب الذين لا يجيدون هذه اللغات لا تسمح له بالنظام والتقنين .

اخيرا :

ماذا يستنتج من موقف علمائنا الاقدمين ازاء النقل من اللغات الاجنبية ؟؟ او بعبارة اكثر صلة بموضوع البحث : ما هو المستوى الصوابي لموقفهم من المعرب الذي اعتبروه ظاهرة طارئة على اللغة ؟؟

يتلخص ذلك فى أمرين :

الاول : قصر المعرب على العرب وحدهم الذين عاشوا فى فترة زمنية خاصة .

الثاني : فرض قواعد الصيغ العربية على استعمال المعرب من لغات متعددة .

وواضح أن الاساس الاول وراء تخصيص المعرب بفترة الاستشهاد فى الحضر ، وهي لا تتجاوز النصف الاول من المائة الثانية .

وأن الاساس الثاني وضح فى جهودهم العلمية حول المعرب من حيث بنيته وعلاماته .

فهل يتفق الاساس الاول مع الحاجات العلمية والاجتماعية المتجددة باستمرار ، وما تدعو اليه من نقل كلمات أجنبية من اللغات الاخرى ؟ ! .

وهل يتفق الاساس الثاني مع طبيعة الاستعمال للكلمات الاجنبية ممن لا يجيدون اللغات التي وردت منها ، وهل يمكن فرض نظام لغة على لغة أخرى ؟ !

بيان ذلك كله فى القسم التالي ان شاء الله .

---

(40) راجع : المعرب من الكلام الاعجمي ص 11 .
(41) راجع : المعرب فى القرآن الكريم ص 140 وما بعدها .

راي علـــم اللغـــة الحديـــث

مناقشة آراء النحاة عن اللحن والتصحيف والتوليـد والتعريـــب تفصيـــلا

تختص هذه الفقرة بعرض الامور التالية :

1 ـ اللحن بين تحكم القواعد وتطور الاستعمال

2 ـ التصحيف والتحريـف من مظاهـر ضعـف الرســم العربـــي

3 ـ الالفاظ المولدة فى ضوء تطور اللغة

4 ـ التعريب بين قيود النحاة وحاجة الاستعمال .

وعرض كل واحد من هذه الامـــور يتبع نهجـــا ملتزما فيها جميعا ، من بيان وجهة النظر الحديثـــة فيها ـ وتقويم المستوى الصوابي للاقدمين فى ضوئها ـ ثم الدلالة على الموقف العلمي الآن منها .

1 ـ اللحن بين تحكم القواعد وتطور الاستعمال .

فى رصد نظرة النحاة لما أطلق عليه « اللحن » فى الكلام العربي ، تبين انهم بذلوا جهودا مفيـدة فى جمع مظاهره ومادته اللغوية التي تسربت للفصحـى على مدى العصور ، لكن المتأمل فى هذه الجهود يفهم منها انهم نظروا اليه فى ضوء القواعد التي اعتبروهـا مقاييس الحكم عليه بالخطأ ، فاعتبروه امرا خطيـــرا يهدد الفصحى فى المعاني والصيغ وتاليـف الكـــلام واعرابه ، لذلك حاربوه بشدة ووقفوا منـه موقـــف الشك والانكار ، وتقويم هذا الموقف كله يكون بالآتي :

ا ـ النظرة الحديثة للحن فى ضوء تطور اللغة.

ب ـ الراي فى جهود النحاة حوله ونظرتهم اليه

ان نظرة اللغويين المحدثين للتغير فى اللغة تتسم بالتسامح ، اذ ترقب هذا التغير فى ضوء استعمـال الناطقين له فقط ، فلا تربط بينه وبين مستوى لغوي آخر لعصر مضى او عصر لاحق كي ترتب على ذلـك حكما عليه بالتقدم او التقهقر ، كما لا تنظر اليه فى ضوء معايير جاهزة ، فما وافقها كان صوابا ، وما خالفها ، كان خطأ ولحنا ، لان مرجع ذلك كله هو هو الجماعـــة اللغوية التي تستعمل اللغة وما ترتضيه أو ترفضه من معاني الالفاظ وصيغها وطريقة تاليفها .

يقول جسبرسن : من راي علماء اللغة أن المقصود بالتطور Development فى اللغة لا يصح أن يلصق به المعنى المشهور فى الامور الاخرى بأنـــه اتجـــاه تقدمي نحو الكمال ، فى مقابل من يصرون على اعتبار التغير تقهقرا الى الوراء اكثر منه اتجاها الى التقدم ، اذ يقصد بالتطور ببساطة : أنه تغير مستمر فى اللغة بدون حكم على قيمة هذا التغير ، والذي يجب اخـذه فى الاعتبار هو اهتمام الجماعة نفسها المتحدثة باللغة ، فهي سلسلة من الاعمال الانسانية بقصـــد الاتصـــال الفكري والشعوري . وتلك وحدها هي الطريقة التي تقاس بها القيم اللغوية . (42)

اذ ينفي « جسبرسن » فى نصه السابـــق أن يوصف التغير فى اللغة بالتقدم أو التقهقر ، وبالرقي او الانحطاط ، فهو تغير مستمر فقط ، وهذا من طبيعة اللغات ، وينبغي النظر اليه فى ضوء الاستعمال ومن حق الناطقين وحدهم الموافقة عليه أو رفضه ، وهذا يقودنا الى بيان قبول الجماعة اللغوية ورفضها بطريقة اكثر تحديدا .

يقرر « أولمان » أن اللغة ـ اية لغة ـ ليســـت ساكنة بحال من الاحوال ، فهي فى تغير مستمـــر فى اصواتها وتراكيبها وعناصرها النحويـــة وصيغهـــا ومعانيها ، وان اختلفت سرعة التغير من فترة زمنية الى اخرى ، فانها موجودة على كل حال ، فلو قمنـــا بدراسة فترتين متباعدتين للغة ما ، فسيؤدي ذلـك الى وضوح اختلافات عميقة كثيرة بينهما ، ومع ذلك فان التغير لا يتم بطريقة عشوائية ، بل يسير وفقـــا لاتجاه منظم ، اذ يبـــدأ أولا بالابتـــداع والتجديـــد Innovation بحدوث ذلك من فرد أو افـراد ، فاذا صادف التغيير قبولا بين من يستعملون اللغة ، انتقل الى مرحلة اخرى هي مرحلة انتشار التغيـــر Dissimination وحينئذ ينفذ الى نظام اللغـــة ، ويصبح عنصرا من عناصرها بقوة الاستعمال (43) .

فادخال التغير فى عنصر من عناصر اللغـــة لا يعني بالضرورة استعمالـــه ثم انتشاره بين جماعـــة الناطقين ، فقد لا يبقى أصلا ، اذ ينسى وينتهي أمره ، وقد يبقى مقصورا على صاحبه أو على جماعة صغيرة محددة لا يتعداها ، لكن اذا قدر له الانتشار بقـــوة الاستعمال وقبوله فان ذلك يعني حدوث تغيـــر فى

---

(42) انظـــر : Language, its Nature, Development and Origin, p. 320-324

(43) راجع : دور الكلمة فى اللغة ص 156 .

اللغة ، وليس من حق أحد رفضه أورده ، وسواء أجاء هذا التغيير دون قصد من الناطقين أنفسهم ـ كما هو الغالب فيه ـ أم حدث بطريقة مقصودة من فرد أو أفراد ، كأن يقترح أحد العلماء أو الادباء لفظا أو تعبيرا يراه جديرا بالاستخدام أو تقترح هيئة مختصة ـ كالمجمع اللغوي مثلا ـ استعمال مصطلح أو صيغة أو تركيب ما ، فان كل ذلك ـ كما سبق ـ يبقى مجرد اقتراح يتوقف الامر فيه على الرضى به واستخدامه من الناطقين أنفسهم .

تلك هي النظرة الحديثة للتغير فى اللغة ، فما هو الراي فى موقف النحاة العرب من اللحن فى ضوء ذلك ؟؟

ونبادر أولا بنفى التردد والشك حول روايات اللحن ومادته التي جمعها النحاة ، اذ افترض استاذنا الدكتور أنيس أنها تحتمل الصحة والوضع من النحاة ، ليخرج من ذلك بما يؤيد رايه المشهور فى حركات الاعراب ، فرتب على احتمال صحتها أن الاعراب لم يكن سليقة بين العرب ، وعلى احتمال وضع النحاة لها أن الاعراب نفسه من عمل النحاة ، وقد اخترعوا روايات اللحن ، ليؤكدوا قيمة معرفتهم وحدهم بالاعراب ، وينالوا ـ كما يقول ـ المثالة لدى الخلفاء والامراء (44) .

والحق أن هذا الشك لا موضع له ، وأن الاقرب الى الصواب أن ما رواه النحاة مما أطلقوا عليه « اللحن » قد حدث فعلا ، وقد يكون فيه دلالة على نفس السليقة كما فهمها الاقدمون ، لكنه لا غرابة فيه من وجهة النظر الحديثة التي تفسر السليقة على أنها اكتساب اللغة بالتمرين والدربة وأن اللغة ـ بهذا الفهم ـ يحدث فيها التغير والتطور مما سماه الاقدمون « اللحن » ثم ان افتراض ان النحاة أنفسهم قد وضعوا روايات اللحن لا يكاد يصدق ، لان المطلع على جهود الأقدمين الضخمة عن اللحن ـ مما نقلته كتب الطبقات أو مؤلفات اللحن الخاصة على مدى العصور وقد قاربت الخمسين مؤلفا (45) ـ يبعد عن ظنه انهم توفروا على وضع ذلك كله . وأن هذه المادة كلها مزيفة مدعاة . كما يضاف الى ذلك أن مظاهر اللحن التي احصاها النحاة لم تقتصر على حركات الاعراب فقط ، بل شملت ـ كما سبق عرضه فى القسم الاول ـ الصيغ وتأليف الكلام ومعاني الالفاظ وحركات الاعراب ، فتعميم الشك والتردد فى جهود النحاة عن اللحن بهذه الصورة لا يؤيده واقعها نفسه .

فاللحن قد حدث فعلا ، وجهود النحاة حوله صحيحة ، وعلمنا هنا تقويم جهودهم فى جمع مادته ، ونظرتهم له .

ان جهود النحاة فى جمع مادة ما اسموه «اللحن» التي نقلتها كتب طبقات النحاة وضمتها كتب « لحن العوام » فى القرن الثاني الهجري وما بعده جهود موفقة جديرة بالاحترام والتقدير ، والمادة العلمية التي حوتها عن مظاهر اللحن المختلفة تدل على دقة التتبع للجزئيات ، وطول الاستقراء والنظر فى اللغة الفصحى ، لكن هذا الجهد الصابر ـ للاسف ـ لم يؤد دوره الصحيح باعتباره تغيرا فى اللغة وتطورا فى عناصرها على مدى العصور ، لان النحاة نظروا اليه فى ضوء مسلمات علمية منها اعتبار اللغة العربية الفصحى فى الحضر قد بلغت غاية كمالها حوالي منتصف القرن الهجري الثاني وأن ما طرأ عليها من تغير بعد ذلك فساد وانحراف من الواجب مقاومته ، ومن ذلك اللحن بطبيعة الحال .

ومن ذلك تجاوز النحاة موقف الباحث فى وصف الاستعمال المتطور الى موقف آخر قاموا فيه بالنص على ما يجوز وما لا يجوز ، فناصبوا تطور اللغة العداء، واستخدموا فى ذلك القواعد التي توصلوا اليها من قبل ، لوضع عناصر التغير فى اللغة تحت سيطرتها ، ثم الحكم عليها بالخطأ . وبذلك لم يؤد جهدهم فى تقصي جزئيات ما اسموه « اللحن » الى نتائجه المرجوة فى معرفة تطور الفصحى وتاريخها ، لعدم اعترافهم بالتطور أصلا ، ومراعاة جانب القواعد لا الاستعمال .

ومن المفيد لنا الآن ـ بعد أن فات ما فات ـ القيام بالامرين التاليين نظرا وعملا .

أولا : تنحية الفكرة القديمة عن المادة المجموعة فى كتب « لحن العوام » باعتبارها فسادا وانحرافا ليحل فى النظر اليها نظرة أخرى من اعتبارها تطورا فى اللغة يهدينا السبيل فى دراسة مراحلها المختلفة .

ثانيا : النظر فى هذه المادة ودراستها مع غيرها من النصوص الموثقة فى عصرها ، ليعلم من

---

(44) انظر : من اسرار اللغة ص 189 .

(45) سبق ذكر الكثير منها فى جدول مرتب زمنيا فى القسم الاول .

ذلك مدى انتشارها فى الاستعمال ، فيقبل منها ما تحقق له ذلك ، ويتوقف فيما عداه دون وسمه بالخطأ او الفساد أو اللحن ، وفى ظني انه **سيقبل من هذه المادة اللغوية كثير من الصيغ واستخدام الادوات النحوية والتراكيب ، دون ما يخل بالاعراب أو يشوه الصيغ .**

وتنفيذ ذلك ليس بالامر المستبعد ، اذا اخذ فى الاعتبار أن معظم كتب « لحن العوام » ما زالت مخطوطة أو مصورة ، وتنال نصوصها بالتحقيق ينبغي أن يصحبه دراسة لهذه النصوص فى ضوء المنهج السابق ، فتتضافر بذلك جهود مفيدة ، لمعرفة تطور الفصحى فى عصورها المختلفة .

2 ـ التصحيف والتحريف من مظاهر ضعف الرسم العربي .

لقد قاوم النحاة العرب مشكلة التصحيف والتحريف التي انعكس تأثيرها على النطق بتغيير معاني الكلمات وصيغها واحيانا قليلة اعرابها ، وسلكوا فى اجتهادهم حول هذه المشكلة طريقا طويلا ، بدأ اولا بمحاولة ضبط الرسم العربي بالنقط والشكل ، ومع ذلك بقي التصحيف مظهرا فى النطق يؤرق بال العلماء كما قرر ذلك حمزة الاصفهاني بقوله : « فقد بان لمن عقل وانصف من نفسه ان اعتراض التصحيف فى هذه الكتابة مع ما جلب اليها من الزيادة فى البيان بالنقط والاعجام ليس الا من ضعف الاساس » .

وقد ترك العلماء هذا الاساس الضعيف على ما هو عليه من ضعف ، وتحولوا عن ذلك الى ما ذكره ابو احمد العسكري نصا بقوله : « فالتمسوا حيلة ، فلم يقدروا الا على الاخذ من افواه الرجال » فما الراي فى هذا الموضوع من وجهة النظر الحديثة ؟؟ ـ يكون ذلك ببيان الآتي :

ا ـ صعوبة اصلاح الرسم ـ لاية لغة ـ لارتباطه بقوة العرف والعادة .

ب ـ الراي فى موقف النحاة من الرسم العربي وما ترتب عليه من تصحيف وتحريف .

ينبغي منذ البداية معرفة أن رسم الكتابة لا يتطابق دائما مع النطق ، أو بعبارة أخرى ، أن صورة اللغة المنطوقة لا تتمثل تماما فى الرسم ، ويعود ذلك ـ كما يقول دى سوسير ـ الى أن اللغة تتغير دائما وباطراد ، بينما تميل الكتابة الى الثبات والمحافظة (46) » فالكتابة اصطلاح عرفي عام لتسجيل النطق بطريقة جامدة لا تخضع للتغير والتطور ، اذ تبقى الصورة العرفية التي بدأت بها أولا واقفة عند نقطة البدء ، بينما يخضع النطق باللغة للتنويع والتغيير فى الاصوات والصيغ والتراكيب والاسلوب بما لا يد لأحد على ايقافه ودفعه ، وذلك تبعا لصلته القوية بحيوية الناطقين وعاداتهم النطقية التي تتغير من فرد لآخر ، ومن عصر لآخر بما لا تستطيع الكتابة أن تلاحقه ، فالكتابة ترتبط بالعادة ، بينما يخضع النطق لعرف الاستعمال ، والعادة فى الكتابة محافظة ، والاستعمال فى اللغة متطور ، والكتابة اداة لتسجيل اللغة ، بينما النطق نشاط حى لمن يستعملون اللغة .

وعلى ذلك ، فان قضية اصلاح الرسم للغة من اللغات ينبغي فهمها فى اطار ظروفها ، دون أن نفرض عليها ظروف اللغة المنطوقة فعلا ، بمحاولة الربط بينهما أو الزام مطابقة النطق ، فان مثل هذه المحاولات غير عملية ولن تؤدي فى النهاية الى نتائج ذات بال .

وقد تناول « فندريس » هذه القضية فى حديث طويل فى كتابه « اللغة » (47) فقرر اننا لا نكتب كما نتكلم ، بل نكتب كما يكتب غيرنا ، اذ نشعر بمجرد وضع ايدينا على القلم بالتزام قواعد واصطلاحات خاصة لها مجالها واهميتها المنفردة .

وتعرض فى حديثه للشكوى من الرسم ، فقرر انها شكوى عامة ، فلا يوجد شعب من الشعوب لا يشكو منه ان قليلا وان كثيرا « وما تعانيه الفرنسية والانجليزية من جرائه قد يفوق ما في غيرهما ، حتى ان بعضهم يعد مصيبة الرسم عندنا كارثة وطنية » وبين ان السبب فى ذلك يعود الى أن الرسم لا يساير دائما حركة اللغة ، اذ تحميه قوة التقاليد التي تسندها المدرسة والآداب واجماع المثقفين ، وأن الكتابة بطبيعتها محافظة « فالثبات ضرورة للغة المكتوبة ، لانها تعتبر لغة مثالية حددت معالمها نهائيا ، ولا يمكن المساس بها الا بعد فوات الاوان ، فمهما عنينا بجعل هذا الكساء مرنا مطابقا لحنايا الجسم ، فلن نستطيع مطلقا أن نخضعه لنزوات الطبيعة وأن نجعله ينمو بنمو الجسم ، لانه ميت يغطي كائنا حيا » ثم امتدح الجهود التي تبذل لاصلاح عيوب الرسم فى الفرنسية ، واورد الاسانيد التي يعتمدون عليها للقيام

---

(46) Course in General Linguistics, p. 27

(47) انظر : اللغة من ص 405 الى 416 .

بهذا الاصلاح ، من انه لا مساس له باللغة ، وان فيه فائدة للمتعلمين من الصغار والاجانب .

لكن « فندريس » مع ذلك يشك فى قيمة هذه الجهود ، ويرى أن هناك عقبات ضخمة لا تسمح لهذا الاصلاح ان يؤدي مهمته ، وهي عقبات متنوعة ، ثقافية ونفسية واجتماعية وتعليمية ، تقف فى وجه هذا الاصلاح ، ثم ينتهي من ذلك الى الراى التالي :

* نعم .. أغلب الظن أن اللغة المكتوبة قد ولدت من اتفاق قام بين بضعة افراد ، ولكن هذا الاتفاق قد امتد حتى شمل المجتمع بأسره ، وفرض نفسه عليه بقوة صارمة ، وليس العقل هو الذي ينظم حياتنا الاجتماعية ، بل العادة ، وحجج الفلسفة كلها عبث فى عبث أمام قدرة العادة ... فنحن عبيد العادات الاجتماعية الى حد كبير ، والرسم هو احدى هذه العادات بالنسبة لكل شخص متحضر ، فلا يمكن اصلاحه الا بأشد الحذر ، وباستيحاء العادة نفسها (48)

أجل .. لا يمكن اصلاح الرسم الا بأشد الحذر وباستيحاء العادة نفسها ، وفى فهمي أن العادة فى الرسم لا تسمح بهذا الاصلاح ابدا ، سواء أتم بحذر أم بغير حذر ، خصوصا اذا قطعت عادة الرسم شوطا طويلا فى تسجيل ثقافة لغة ما ـ كالعربية مثلا ـ حيث لا يمكن ارجاع ذلك ولا تغييره ولا قطع الصلة به ، بالاضافة الى ما يحدثه التغيير من هزات نفسية واجتماعية قاسية من العسير تحملها وتحمل نتائجها ، واعتقد ـ ان لم يجانبني التوفيق ـ أن كل محاولة لتغيير رسم الكتابة فى مثل هذه الظروف جهد ضائع مصيره الفشل . ـ فما الراي اذن فى موقف النحاة العرب من هذا الموضوع ؟ !

من الانصاف لعلمائنا الاقدمين أن تقرر انهم لم يبحثوا فى تغيير الرسم العربي بطريقة مباشرة ، فان الذي وجهوا اليه اهتمامهم كان امرا آخر هو التصحيف والتحريف فى النطق ، وقد دفعهم الى بحث ذلك المظهر سبب ديني هو تلافيه فى نصوص القرآن التي دونت بالرسم العربي فى مصاحف عثمان ثم عمموا بحثهم عن هذا الموضوع فى كل نصوص اللغة شعرا ونثرا ، فاصلاح الرسم العربي لديهم لم يكن موضعا مقصودا لذاته ، وهذا المعنى يفسر مسلكهم تجاه اصلاحه ، كما يفسر فى الوقت نفسه مسلكهم تجاه المظهر الاساسي الذي ترتب عليه وهو التصحيف والتحريف ، ذلك انهم حصروا جهودهم فى ضبط الرسم العربي بالاعجام والشكل فقط ، ولم يتناولوا الموضوع من أساسه باعتبار الرسم العربي كما قال الاصفهاني من بعد « ضعيف الاساس » ، واذا جاز أن تغيير الرسم العربي فى وقتنا الحاضر فكرة غير عملية حيث قطع شوطا طويلا فى تسجيل الثقافة العربية ونقلها ، ففي ظني أن هذا التغيير كان ممكنا فى هذا الوقت المبكر من القرن الاول والثاني من الهجرة لكن الاقدمين لم يواجهوا ذلك بطريقة صريحة جريئة ، فبقي ضعف الأساس على هذه الصفة حتى اليوم ، ومن يدري !! فربما كان ذلك موانع دينية وثقافية قامت ايضا فى وجوههم ، فحجزتهم عن هذا التغيير والتفكير فيه ، ومن ذلك أن القرآن كان قد دون بهذا الرسم العربي ، وأن هذا الرسم ـ ان صح التقدير ـ كان قد قطع شوطا كبيرا فى تسجيل ثقافة العرب وعاداتهم فى الجاهلية وصدر الاسلام فمنعهم ذلك كله من تغييره ، وكان موقفهم مماثلا لموقفنا اليوم ، ودارت جهودهم حول ضبطه فقط ، وكان هذا غاية ما فى وسعهم .

كما أن جهودهم لتلافي التصحيف والتحريف ـ بالقياس الى ظروفهم ـ فى مجملها جهود مفيدة ، فحاولوا ضبط الاساس ، ثم تواصوا بالرواية الشفهية ، وعابوا المصحفين والمحرفين حين لم يسعفهم اصلاح الخط العربي ، واخيرا جمعوا ذلك كله فى مؤلفات خاصة ، لتنقية ما وقع من أخطاء التصحيف والتحريف من العوام والخاصة ، وكان ذلك ايضا غاية وسعهم .

وموقفنا العلمي اليوم من هذا الموضوع أن التفكير فى تغيير الرسم العربي أمر غير عملي ، وأن الرسم العربي ـ شأن غيره فى اللغات الاخرى ـ قد يشتمل على عيوب ، وهذه العيوب ينبغي احتمالها والرضى بها تلافيا لما يترتب على التغيير من مشاكل لا قبل لنا بها ، عملا بالعبارة المتوارثة عن الاقدمين « باحتمال أخف الضررين » .

3 ـ الالفاظ المولدة فى ضوء تطور اللغة :

اختلف موقف الاقدمين من الالفاظ المولدة بين الاعتراف بفصاحتها ورفض الاستشهاد بها ، او الاعتراف بمعانيها واستخدامها فى الادب والانصراف عن بنيتها ودراستها فى اللغة ، مما قرره ابن جنى نصا بقوله : « يستشهد بشعر المولدين فى المعاني ، كما يستشهد بشعر العرب فى الالفاظ » ، وقد اتخذ

(48) انظر : اللغة ص 416 .

تقييد عصر الاستشهاد وعدم الاعتراف بتطور اللغة الاساس الذي ركن اليه الاقدمون فى اخراج هذه الثروة الجديدة من الالفاظ عن كلام العرب ، وعدم السماح لها بالدخول الى الدراسة ، وبقيت حتى اليوم مشتتة تائهة فى مصادر اللحن والتعريب والمعاجم موسومة بتلك السمة العنصرية « مولدة » ، فما الراي فى هذا الموضوع من وجهة النظر الحديثة ؟ ! يتضح ذلك ببيان الآتي :

ا ـ الالفاظ المولدة مظهر لتطور اللغة .

ب ـ الراي فى موقف النحاة من هذه الالفاظ الجديدة .

ان تأمل المصادر اللغوية لتوليد الالفاظ من الارتجال بالاشتقاق والتعريب بعد عصر الاستشهاد وتطور دلالة الالفاظ ـ سبق عرضها فى الباب الاول ـ يتضح منه ما نحن بصدده من حاجة الناطقين بالعربية الى الالفاظ الجديدة واللجوء فى ذلك الى وجوه مشروعة ـ وان كانت غير متعمدة ـ لسد حاجتهم منها ، وتغير الظروف الاجتماعية الدائم ينعكس تأثيره على اللغة واستعمالها فتنزوي الفاظ لم يعد ثمة حاجة اليها ، وتجد اخرى فى الاستعمال لدواعي الظروف الجديدة اليها ، ويتم كل ذلك بطريقة تلقائية مستمرة ، تماما كما يتم التغيير فى كل المظاهر الاجتماعية الاخرى .

والباحث فى اللغة ـ من وجهة النظر الحديثة ـ يعترف بالتطور باعتباره مظهرا اجتماعيا يحدث للغة كما يحدث لغيرها . وينظر اليه بهذا الاعتبار ، فيلاحظه ويصفه ، ويصل من ذلك الى معرفة ما جد من عناصر التطور فى مرحلة من مراحل اللغة عن مرحلة اخرى ، وليس من عمل الباحث أن يقف بدراسته عند فترة معينة ، يحتفي بلغتها ، ويرفض غيرها ، معتقدا أن ما احتفى به هو الصحيح الجدير بالدراسة ، وأن غيره مما لم يسر على نهجه مخالفات ينبغي وسمها بهذه الصفة ، فهي مخالفات حقا اذا وضعت فى ضوء مسلك اللغة فى مرحلة سابقة ، ولكنها بالقياس الى عصرها ذات قيمة متميزة لا تقل فى تمثيل المستوى الصوابي له عن غيرها من العصور كما سبق بيانه والاستدلال عليه فى مناقشة تقييد عصر الاستشهاد .

وعلى ذلك ، فان موقف النحاة من الالفاظ المولدة قد تحكمت فيه اعتبارات سلموا بها ، ثم استسلموا لها ، وهي اعتبارات تعود اليهم ، من تنصيب انفسهم سلطة تبيح وتمنع ، مع أن عملهم الحقيقي هو الوصف والاستقراء ، كما تعود الى تعلقهم بربط اللغة المثالية بعصر خاص مع ان واقع الامر انها ترتبط بالاستعمال وحاجات المجتمع فى كل عصر على انفراد ، وينبغي النظر اليها بهذه الصفة بدون تفضيل عصر على عصر آخر بالقبول والرفض ، وهي اخيرا ترتبط بفكرة الربط بين نقاء العنصر ونقاء اللغة ، فقد وثقوا الاعراب بعد وقف الاستشهاد بالحضر حتى القرن الرابع ، ورفضوا الاعتماد على المولدين فى هذا العصر نفسه . فكل هذه الاعتبارات غير مقنعة لغويا ، وقد وجهت نظرتهم فى رفض الالفاظ المولدة .

* يقول برجشتراسر : الذي منع علماء الشرق ـ مع بذل الجهد العجيب فى درس اللغة العربية من جهة الصرف والنحو ومن جهة المفردات ـ عن الاعتناء الكافي بالكشف عن تطور اللغة بعد الاسلام سببان مرتبطان احدهما بالآخر :

اولهما : مداومتهم على السؤال عن الجائز فى اللغة وضده ، وعلى المنع عن كثير من العبارات ، وهذا وان كان واجبا نافعا ، فهو عمل المعلم لا العالم ، فالعالم يفحص عما يكون فى الحقيقة لا عما كان ينبغي أن يكون ، والمعلم لا يظن أن تعليمه اقوى من الحياة ، فان نسي هذه النصيحة واجتهد أن يقهر حياة اللغة ويعوقها ، جازته وغفلت عن تعليمه ، فيتسع اذن الشق الحاجز بين اللغة الحقيقية الحية وبين ما يعلمه النحويون ، كما نشاهد ذلك فى تاريخ اللغة العربية .

والسبب الثاني : اعتقاد علماء الشرق أن اكمل ما كانت عليه اللغة العربية واتقنه واحسنه ما يوجد فى الشعر القديم ، وهذا حكم غير علمي (49) .

اجل .. هذا حكم غير علمي ، يتجاوز موقف العلم الى موقف التعليم ، ويحاول قهر حياة اللغة والتفاعل عن تطورها ، فتجوزه وتغفل عن تعاليمه ، ولا تعترف فى سيرها المستمر بما اعتنقه النحاة عن عصر آخر من الكمال والاتقان والحسن ، وهذا الحكم غير العلمي هو الذي طبقه النحاة على المولد من الالفاظ لغويا ، وهو الذي يفسر تلك المفارقة التي وردت عنهم فى الاعتراف بفصاحة المولد دون حجيته فى الاستشهاد ، والاعتراف بمعانيه دون صيغه ، واستخدامه فى الادب دون دراسة اللغة .. اليس هذا غريبا !!

---

(49) التطور النحوي ص : 127 .

ان واجبنا الآن ان نرد لما اطلق عليه النحاة « المولد » قيمته اللغوية باعتباره جانبا مهما من مظاهر تطور الفصحى ، وسبيلنا لذلك جمع شتاته من مصادره مرتبة بحسب عصور الفصحى ، ثم استقراء بنية الكلمات فيه لمعرفة ما جد من تطور على مسلك الصيغ العربية بسببه ، مع اباحة التوليد الغنية فى استخدام كلمات جديدة فى وقتنا الحاضر ، كما اعترف الاقدمون انفسهم بذلك فى المعاني ودراسة الادب ، فسارت دراستهم فى طريق طبيعي مفيد لم يتح مثله لدراسة اللغة حتى اليوم .

4 ـ التعريب بين قيود النحاة وحاجة الاستعمال :

فى فهم نظرة النحاة للمعرب ـ فى الباب الاول ـ تبين انهم قصروه على عصر الاستشهاد فى الحضر ، او بتعبير الجواليقي على « ما تكلمت به العرب من الكلام الاعجمي » و « ما ذكرته العرب فى اخبارها واشعارها » وقد نص الخفاجي على ان « ما عربه المتأخرون يعد مولدا » ، وبالغوا فى الاحتياط لموقفهم فقصروا المعرب على السماع فى عصر الاستشهاد ، ورفضوا القياس عليه بعد ذلك ، ثم زادوا هذا الاحتياط شدة بأن حاولوا جاهدين اخضاعه لمسلك الصيغ العربية فى الالحاق والتغيير والعلامات ، لكن هذا الجهد العظيم مع ذلك قصر عن الاحاطة التامة باستعمال الكلمات الاجنبية المتعددة المصادر والاستعمال فجاءت نتائجه عامة غير منضبطة وغير مقنعة .

فما الراي فى ذلك من وجهة النظر الحديثة ؟ لـ يتبين ذلك بالآتي :

ا ـ التعريب ضرورة علمية واجتماعية متجددة

ب ـ مدى صحة اخضاع نظام لغة لاخرى فى الدراسة .

ج ـ الراى فى موقف النحاة من المعرب نظرا ودراسة .

لقد تناول اللغويون المحدثون ما اسماه العرب « التعريب » ضمن دراسة عامة لما اطلقوا عليه اسم الاقتراض او الاستعارة Barroming ، فدرسوا التأثير والتأثر بين اللغات من نواح متعددة ، من ذلك بيان مدى تأثر اللغة المستعيرة أو المقترضة من لغة اخرى عن اختلاط عناصرها أو بقائها لغة واحدة مع ما طرأ عليها من عناصر اللغات الاخرى ، وقد أورد « فندريس » عن ذلك نظرتين متعارضتين تقول احداهما : « ان كل اللغات تعتبر لغات مختلطة الى حد ما » ومن راي الاخرى « أن الانسان لا يتكلم مطلقا فى الوقت الواحد الا لغة واحدة » كما أورد نقاش كلتا هاتين النظريتين ليخلص أخيرا الى القول بأن الذي يحسم الامر فى ذلك هو مدى تدخل العناصر المستوردة فى افساد نظام اللغة المقترضة أو عدم تدخله ، وبذلك يمكن الحكم بالاختلاط فى اللغة أو بقائها دون تأثر مخل (50) .

كما درس المحدثون أيضا مدى التأثر بين اللغات من فصائل مختلفة او من فصيلة واحدة ، او ما اسماه « مايبه » اللغات المتميزة وغير المتميزة ، حيث يقتصر التأثير فى النوع الاول غالبا على المفردات بينما يمكن ان يمتد التأثير فى النوع الاخير الى عناصر اخرى فى اللغة نحوا وصيغا ومفردات واذا كثر هذا النوع الاخير فى لغة ما ، كان أمرا خطيرا حيث يؤدي ذلك ـ كما يقول ـ الى استبدال اللغة بغيرها استبدالا تاما (51) .

ويتوسع « أولمان » فى بيان المصادر اللغوية التي يلجأ اليها المتكلم للاقتراض حين يواجه بالنقص فى قصور الثورة اللفظية لديه عن أداء حاجاته ، اذ يلجأ فى ذلك الى اللغات الأجنبية أو اللهجات المحلية أو الاصطلاحات الفنية والمهنية الخاصة ، فينقل الكلمات كما هي او يلجأ فيها الى الترجمة (52) .

وحول هذه الافكار العامة عن « الاقتراض » تفصيلات واسعة ليس من المفيد هنا التعرض لها لان ما نحن بصدده يتعلق بموضوع خاص هو : نقل الكلمات من اللغات الاجنبية مع عرفها فى لغتها الاصلية بما لا يؤثر فى اللغة المقترضة مما اطلق عليه النحاة العرب « التعريب » وبيان مدى الحاجة اليه اجتماعيا وعلميا ، وقد اعتبر اللغويون المحدثون هذا النوع من الاقتراض امرا عاديا لا خوف منه ولا خطر فيه ، وذلك

---

(50) انظر : اللغة ص 358 وما بعدها .
(51) راجع : منهج البحث فى اللغة والادب ص 101
(52) انظـر : دور الكلمة فى اللغة ص 145 .

بالقياس الى انواع الاقتراض الاخرى التي تؤثر فى نظام لغة ما ، وقد تؤدي الى الاخلال به وافساده .

* يقول فندريس : لندع جانبا استعارة المفردات التي تتبادلها اللغات فيما بينها ، فمن خصائص هذه المستعارات انها لا تحتم كون المتكلم يتكلم اللغة التي استعيرت منها ، او حتى معرفته بها ... فاستعارة المفردات مهما اشتد تأثيرها يمكن أن تظل مسألة خارجة عن اللغة (53) .

فنقل الكلمات من لغة الى أخرى أمر عادي كثير الحدوث يترتب على الاتصال الاجتماعي بمظاهره المختلفة من التجارة او الثقافة او الحروب أو انتقال العادات والتقاليد ، وذلك بالتعرف على انواع من النبات والحيوان والمأكول والمشروب والملابس والمعادن وآلات الحرب والطرب والكلمات العلمية والفنية . ويتم ذلك كله فى غالب الاحيان من الناطقين باللغة انفسهم بطريقة تلقائية تدعو اليها ضرورة الاستعمال ، ويتوقف انتشارها على العرف اللغوي فى البيئة التي نقل اليها ، ومن الطبيعي ان هذه الكلمات الاجنبية المنقولة تتوقف صحة تطقها — كما هي فى لغتها الاصلية — على ظروف اخرى تتعلق بالناطقين انفسهم ، سواء من نطقوها أولا أم من استعملوها بعد ذلك ، تبعا لاجادة اللغة التي نقلت منها الكلمة ، أو دقة السماع لها ، ويبقى الاختلاف فى نطقها موجودا حتى بعد انتشار استعمالها فى البيئة الجديدة .

ان الحالة الوحيدة التي يمكن فيها تحديد مسلك الصيغة هي حالة التعريب المتعمد ، حين تدعو الحاجة العلمية او الفنية لاستخدام مصطلحات جديدة تدعو اليها الضرورة ، ففى هذه الحالة يتصور خضوع نقل الكلمات من اللغات الاجنبية لطريقة موحدة سواء انقلت دون تصرف فيها على الاطلاق أم نقلت مع التصرف فى صيغتها أو حروفها أو حركاتها ، هنا فقط يمكن أن يتدخل علماء اللغة بالتحديد والتقنين ، او بعبارة أخرى : يمكن فرض مسلك اللغة المنقول اليها على الكلمات المنقولة ، كما يمكن التدخل فى ضبط كمية الالفاظ المنقولة حسبما تدعو الضرورة ، اما منعه مطلقا فامر بعيد وغير عملي ، لانه يتنافى مع الحاجات العلمية والفنية المتجددة فى كل العصور .

اما استعمال الكلمات الاجنبية بين الناطقين انفسهم ، فان التدخل فى تحديد كتبه او اخضاعه لنظام اللغة التي نقل اليها لن يؤدي الى نتائج مفيدة مطردة ، اذ تقصر هذه النتائج عن الاحاطة بها ، أو اخضاع الناطقين لها ، لان الناطقين — مع تعددهم وقدراتهم — يتعذر اخضاع نطقهم لقوانين محددة حين النقل او الاستعمال ، واللغات التي ينقلون عنها ذات نظم خاصة بها فى الصيغ والحروف يتعذر معها فرض نظام آخر عليها ، فاذا أضيف لذلك ان النقل يكون من لغات متعددة — كما حدث فى العربية قديما ويحدث الآن — بدا الأمر حينئذ أشد عسرا ، ومع ذلك فانه لا يدعو للجزع ، لان الامر كما قال : « فندريس » ان استعارة المفردات مهما اشتد تأثيرها يمكن اذن أن تظل مسالة خارجة عن اللغة » .

وفى ضوء ما سبق يمكن تقويم موقف النحاة العرب من المعرب نظرا ودراسة بما يلي :

اولا : أن قصر النحاة التعريب على عصر الاستشهاد باللغة فى الحضر ، وتخصيصه بالسماع زيادة فى الاحتياط **قد خضع لوجهة نظرهم فى تقييد عصر الاستشهاد باللغة عموما** ، واختص بشدة الاحتياط منهم تجاهه ، حيث وثقوا نقل الكلمات الاجنبية الواردة عن هذا العصر ودرسوها ، مع الإنصراف عما نقل فى غيره قياسا عليه ، وهذا مسلك لا يتفق مع الحاجة الاجتماعية المتجددة على مدى العصور ، وما يحدث فعلا بين اللغات من تأثير وتأثر لا ينقطع ، يتبعه بالضرورة انتقال الكلمات من لغة لأخرى ، واستعمال الناس لها ، كما لا يتفق مع الحاجات العلمية المتجددة — خصوصا فى عصرنا الحاضر — لاستخدام مصطلحات تحتم ظروف العلوم احيانا أن تكون عالمية ، وقد لا يتيسر الوفاء بها عن طريق الترجمة او الاشتقاق أو تطوير دلالة الكلمات .

ثانيا : أن اخضاع كل ما ينقل من لغات اجنبية فى عصر الاستشهاد لمسلك الصيغ العربية امر لم يتوافق تماما مع الواقع ، ومستندنا فى ذلك القواعد التي توصل لها النحاة انفسهم عن المعرب حيث يبدو فيها العموم وسوق الاحتمالات والتحرز فى الرأي ، سواء فى ذلك ما ذكروه عن الحاقها بالصيغ العربية أو التغيير فيها او علاماتها المميزة لها ، كما يدل على ذلك ايضا الاطلاع على أحد كتب المتأخرين عن التعريب — راجع جدولها فى الباب الاول — وما ضمه من كلمات معربة ، اذ يتبين — حتى بالنظرة السريعة —

---

(53) اللغة ص 358 .

انها لا تتوافق تماما مع قواعد النحاة عن التعريب ، وهذا طبيعي ، لان التعريب يخضع لظروف الناطقين وقدراتهم **وهي غير موحدة** ، كما يخضع لظروف اللغات الاصلية التي حدث النقل منها ، وهي لا تخضع تماما لفرض نظام لغة اخرى عليها .

والرأى ـ فى فهمي ـ أن يدرس هذا الموضوع بطريقة مستقلة ، باستقراء الكلمات المعربة الى العربية مما نصت عليه مؤلفات التعريب الخاصة ومما ورد فى نصوص موثقة ، وذلك لحصرها ، ومعرفة العوامل الاجتماعية التي ادت الى نقلها ، ومدى تأثر الفصحى بها على مدى العصور ، وذلك أكثر فائدة لنا ولها من محاولة مصادرتها أو اخضاعها لقواعد محددة لا تتوافق معها تماما .

ثالثا : انه يمكن الافادة من قواعد النحاة للتعريب فى حاجة العلوم والآداب فى الوقت الحاضر للمصطلحات والكلمات التي لا تفي بها وسيلة أخرى ، ففى هذا النوع من التعريب المتعمد يمكن استخدام الكلمات الاجنبية بنصها أو التصرف فيها فى ضوء جهود النحاة عن هذا الموضوع ، مع كتابة المقابل الاجنبي بجوارها ، وهذا ما يفهم من قرار المجمع اللغوي الذي نص على انه « يجوز أن تستعمل بعض الالفاظ الاعجمية عند الضرورة على طريقة العرب فى تعريبهم » حيث قيد استعمال الكلمات الاجنبية بالضرورة ، وهي لا تتحقق الا فى هذا النوع المتعمد ، أما الاستعمال العام ، فلا ينتظر قرارا أو اجازة ، ولا يبحث عن ضرورة أو رخصة .

استخلاص نظرة المحدثين للعوامل الطارئة على اللغة

من العرض السابق لوجهة النظر الحديثة فى أسس الصواب والخطأ عن العوامل الطارئة على اللغة ـ بمناقشتها وبيان الراي فيها ـ تتلخص نظرة المحدثين فيما يلي :

أولا : اعتبار التطور فى اللغة من أسس النظرية الحديثة للمستوى الصوابي ، ومفهوم هذا التطور ـ كما يرى جسبرسن ـ هو التغيير المستمر فى عناصر اللغة ، والمرجع فيه استعمال الناطقين أنفسهم دون حكم عليه بأنه تقدم أو تقهقر ودون تحكيم معايير مسبقة فيه ، فما وافقها كان صوابا ، وما خالفها كان لحنا وخطأ ، وهذا التغير يتم وفقا لاتجاه منظم فى الاستعمال ، اذ يمر أولا بمرحلة الابداع والتجديد الفردي ، ثم القبول العام من الجماعة ، وحينئذ لا يكون من حق أحد رده ، بل يجب استقراؤه ودراسته ، فما اسماه النحاة « باللحن » هو فى واقع الامر تغير وتطور ، ومن ثم يجب دراسته بهذا الاعتبار ، ليؤدي دوره فى بيان تاريخ العربية وتطورها .

ثانيا : لاتتطابق الكتابة تماما ـ لاية لغة ـ مع نطق هذه اللغة ، فنحن ـ كما يقول فندريس ـ لا نكتب كما نتكلم ، بل نكتب كما يكتب غيرنا ، فالرسم من العادات العرفية التي يترتب على تغييرها مشاكل فى غاية الخطورة ـ ثقافية واجتماعية ونفسية ـ من العسير تحملها وتحمل نتائجها ، ويصدق على الرسم العربي ما يصدق على غيره فى اللغات الاخرى ، أما ما يترتب عليه من تصحيف وتحريف فمن المفيد الاخذ بمسلك علمائنا الاقدمين تجاهه من ضبط النطق وجمع الاخطاء وتنقيتها ، ما دامت تلك الاخطاء تترتب على الرسم ، وهو مما يتعذر تغييره .

ثالثا : ان تغير الظروف الاجتماعية ينعكس تأثيره على الالفاظ من حيث اختفاء بعضها واندثاره وحدوث الآخر واستعماله ، تماما كما يتم التغيير فى المظاهر الاجتماعية الاخرى ، وينبغي أن تتفق النظرة الى الالفاظ الجديدة مع هذا الفهم السابق دون فرض ظروف خارجة عن ذلك تعود الى سلطة الدارسين أو العصر أو العنصر ، والتوليد فى الالفاظ العربية مظهر للتجديد فى الالفاظ بطرق مشروعة ، وقد لجأ اليها الناطقون لسد حاجتهم فى الاستعمال ـ ومن حقنا الآن الافادة منها ـ وهو بذلك جدير بالدراسة لمعرفة ما جد من تطور على الصيغ العربية بسببه .

رابعا : من راي المحدثين أن نقل الالفاظ من اللغات الاجنبية يخضع للحاجات الاجتماعية المتجددة للناطقين انفسهم ، كما يخضع فى أحد مظاهره للحاجات العلمية والفنية ، وأن انتقال الالفاظ بين اللغات أمر عادي لا خطر فيه ولا خوف منه ، ولا يتصور فى هذا النقل أن يقتصر على عصر دون آخر ومحاولة اخضاعه لمسلك الصيغ فى اللغة التي نقل اليها يتعذر ضبطه بدقة ، لاختلاف قدرات من ينقلون الالفاظ مضافا اليه اختلاف اللغات التي حدث منها النقل وتعددها ، والحالة الوحيدة التي يمكن التدخل فيها لتحديد بنية الكلمات هي النقل المتعمد الذي تدعو اليه الضرورة فى المصطلحات العلمية والادبية والفنية، وفى هذه الحالة الاخيرة يمكن حقا الافادة من جهود النحاة العرب فى دراسة التعريب .

مصـــادر البحـــث

اولا : المصادر العربية المطبوعة

1 ـــ **ادب الكـاتـــب**

لابى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد
مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعـــة
سنـــة 1962 م

2 ـــ **الاشتقـــاق والتعريـــب**

عبـــد القـــادر المغربـــي
مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة
الطبعة الثانية سنة 1947 م

3 ـــ **اصـــلاح المنطـــق**

لابى يوسف يعقوب بن اسحاق بن السكيت
تحقيق : احمد شاكر وعبد السلام هارون
دار المعارف ـ القاهرة سنة 1952 م

4 ـــ **الاغـانـــي**

لابى الفرج علي بن الحسين الاصفهاني
تصحيح : الشيخ احمد الشنقيطي
مطبعة التقدم ـ القاهرة (دون تاريخ)

5 ـــ **امالـــي الزجاجـــي**

لابى القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي
تحقيق : عبد السلام هارون
طبع المؤسسة العربية الحديثـــة ـ القاهـــرة
سنـــة 1382 هـ .

6 ـــ **امالـــي المرتضـــى**

للشريف المرتضى : علي بن الحسين الموسوي
العلـــوي
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم
طبع دار احياء الكتب العربيـــة ـ القاهـــرة
سنـــة 1954 م

7 ـــ **انباه الرواه على انباه النحاة**

تاليف : علي بن يوسف القفطي
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم
مطبعة دار الكتب ـ القاهرة سنة 1950 ـ 1955

8 ـــ **بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة**

جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر السيوطـي
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم
مطبعة الحلبي ـ القاهرة سنة 1965 م

9 ـــ **بلوغ الأرب فى معرفة احوال العرب**

محمود شكري الالوسي
المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانيـــة
سنـــة 1925 م

10 ـــ **البيـــان والتبييـــن**

لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبد السلام هارون
مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة
سنـــة 1948 ـ 1950

11 ـــ **تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين**

جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر السيوطي
المطبعة الميمنية ـ القاهرة ـ سنة 1305 هـ

12 ـــ **التطـــور النحـــوي**

تاليف : برجشتراسر
طبع القاهـــرة سنة 1929 م

13 ـــ **التنبيه على غلط الجاهل والنبيه**

تاليف : ابن كمال باشـــا
تحقيق : عبد القادر المغربي
طبـــع دمشق سنة 1344 هـ

14 ـــ **الحيـــــوان**

لابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيـــق : عبد الســـلام هـــارون
مطبعة الحلبي ـ القاهرة ـ سنة 1938ـ1945م

15 ـــ **درة الغواص فى اوهام الخواص**

لابى محمد القاسم بن علي الحريري
طبع بغداد (عن ليبزج) سنة 1871 م

16 — **دليل لغة العرب**

تأليف : محمد امر الله
مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ سنة 1345 م

17 — **دور الكلمة فى اللغة**

تأليف : ستيفن أولمان
ترجمة : دكتور كمال بشر
طبع القاهرة سنة 1962 م

18 — **ذيل الفصيح**

لابى محمد عبد اللطيف البغدادي
مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ سنة 1325 هـ

19 — **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف**

لابى أحمد الحسن بن عبد الله العسكري
تحقيق : عبد العزيز أحمد
طبع الحلبي ـ القاهرة ـ سنة 1963 م

20 — **شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل**

شهاب الدين أحمد الخفاجي
مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ سنة 1325 هـ

21 — **صبح الأعشي فى صناعة الانشا**

لابى العباس أحمد القلقشندي
المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ سنة 1331 هـ

22 — **طبقات فحول الشعراء**

محمد بن سلام الجمحي
تحقيق : محمود محمد شاكر
دار المعارف ـ القاهرة ـ سنة 1955 م

23 — **الطراز المذهب فى الدخيل والمعرب**

تأليف : محمد نهاني

24 — **العمدة فى صناعة الشعر ونقده**

لابى علي الحسن بن رشيق القيرواني
مطبعة ابن هندية ـ القاهرة ـ سنة 1925 م

25 — **الفاخر فيما تلحن فيه العامة**

لابي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم
تحقيق : عبد العليم الطحاوي
طبع دار الكتب العربية ـ القاهرة ـ سنة 1960م

26 — **فحولة الشعراء**

لابى محمد عبد الملك بن قريب الاصمعي
تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي
المطبعة المنيرية ـ القاهرة ـ سنة 1953 م

27 — **كتاب سيبويه**

لابى بشر عمرو بن قنبر الملقب « سيبويه »
المطبعة الاميرية ـ القاهرة 1316 هـ

28 — **لحن العوام**

لابى بكر محمد بن الحسن الزبيدي
تحقيق : دكتور رمضان عبد التواب
المطبعة الكمالية ـ القاهرة ـ سنة 1964 م

29 — **اللغة**

تأليف : ج. قندريس
ترجمة : عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص
طبع لجنة البيان العربي ـ القاهرة سنة ـ 1950

30 — **ما تلحن فيه العوام**

علي بن حمزة الكسائي
تحقيق : عبد العزيز الميمني
المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ سنة 1344 هـ

31 — **مجالس ثعلب**

لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب
تحقيق : عبد السلام هارون
طبع دار المعارف ـ القاهرة سنة 1948 ـ 1960

32 — **مجالس العلماء**

لابى القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي
تحقيق : عبد السلام هارون
طبع الكويت سنة 1962 م

33 — **محاضـــرات الادبـــاء**

لابى القاسم حسين بن محمد الاصبهاني
مطبعة الموبلحي ـ القاهرة ـ سنة 1387 هـ

34 — **مراتـــب النحويـــن**

لابى الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم
مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة ـ سنة 1955 م

35 — **المزهر فى علوم اللغـــة**

جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر السيوطي
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم وآخرين
دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة (بدون تاريخ)

36 — **مصادر الشعر الجاهلي**

دكتور ناصـــر الديـــن الأســـد
طبع دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانيـــة
سنـــة 1962 م

37 — **معجـــم الادبـــاء**

تاليـــف : ياقـــوت الحمـــوي
طبع دار المامون ـ القاهرة ـ سنة 1938 م

38 — **المعرب من الكلام الاعجمي**

لابى منصور موهوب بن احمد الجواليقي
تحقيـــق : احمد محمـــد شاكـــر
طبع دار الكتب ـ القاهرة ـ سنة 1361 هـ

39 — **مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب**

لابى محمد عبد الله بن يوسف بن هشام
تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد
مطبعة المدني ـ القاهرة ـ (بدون تاريخ)

40 — **المـــلاحـــــن**

لابى بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي
تحقيق : ابراهيم اطفين الجزائري
المطبعة السلفية ـ القاهرة سنة 1347 هـ

41 — **من أســـرار اللغـــة**

دكتـــور ابراهيـــم أنيـــس
المطبعة الفنية الحديثة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية
سنـــة 1966

42 — **منهج البحث فى الادب واللغة**

تاليـــف : لانســـون ومايـــه
ترجمة : دكتور محمد مندور
طبـــع بيـــروت سنـــة 1946 م

43 — **الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء**

لابى عبيد الله محمد بن عمران المرزباني
المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ سنة 1343 هـ

— ◆ —

ثانيا : المصادر العربية المخطوطة والمصورة

44 — **ارتشاف الضرب من كلام العرب**

لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيـــان
مخطوط ـ دار الكتب ـ 1106 نحو

45 — **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف**

لابى الصفا صلاح الدين خليل الصفوي
مصور ـ دار الكتب ـ 37 ـ 38 الزكية

46 — **تصحيـــف المحدثيـــن**

لابى احمد الحسن بن عبد الله العسكري
مخطوط ـ دار الكتب ـ 2 من حديث

47 — **تقويـــم اللســـان**

لابي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي
مصور ـ دار الكتب ـ 427 لغة طلعت

48 — **التنبيه على حدوث التصحيف**

حمزة بن الحسن الاصبهاني
مصور ـ دار الكتب ـ 896 أدب تيمور

49 — **رسالة فى اغلاط العوام**

جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطـــي
مخطوط ـ دار الكتب ـ 348 لغة طلعت

50 — **سهم الالحاظ فى وهم الالفاظ**

محمد بن أبراهيم بن الحنبلي الربعي
مخطوط ـ دار الكتب ـ 254 لغة

51 — **قصد السبيل فيما فى اللغة من الدخيل**

محمـــد الأميـــن المحبـــي
مخطوط ـ دار الكتب ـ 295 لغة تيمور

52 — **المتوكلى فيما فى القرآن من المعرب**

جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوط
مخطوط ـ دار الكتب 5706 ه

53 — **المعرب فى القرآن الكريم**

تاليـــف : احمد القوصي
مخطوط ـ دار الكتب ـ 465 لغة تيمور

54 — **منح المغيث فى جواز اللحن فى الحديث**

لابي عبد الله الافراني المراكشي
مخطوط ـ دار الكتب ـ 176 مجاميع تيمور

— ◆ —

ثالثا : المصادر الاجنبية

— 55
Course in General Linguistics, F. De Saussure, London, 1959.

— 56
Language, its Nature, Development and Origin, O. Jespersen, London, 1947